بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية الدراسات العليا

برنامج ماجستير الترجمة العامة – الدفعة الخامسة

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير

ترجمة الصفحات (١- ٥٠) من كتاب النيل الأحمر:

لمؤلفه : روبرت تويقر

Translation of pages (1- 50) from the book entitled:

"The Red Nile" by: Robert Twigger

إعداد الطالب

مرتضى موسى عمر

إشراف الدكتور

محمد الطيب

2014 م

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم

يقول الحق سبحانه وتعالى:

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

صدق الله العظيم

سورة إبراهيم ، الآية (٤).

الإهـداء

أهدى هذا البحث إلى شقيقتي الدكتورة سعدية موسي عمر البشير التي شجعتني على سلوك طريق الدرجات العلمية والتحصيل.

كما أهديه إلى أخي العزيز الجيلي موسى الذي تعلمت منه معنى أن تكون الشقيق الأكبر.

إلى والديّ ... " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا".

الشكر والعرفان

أتقدم بالشكر والعرفان لكل من أسهم في هذا البحث بالمؤازرة والطباعة وأخص بالشكر زوجتى الفاضلة هديل ، وكل أعضاء هيئة التدريس بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – كلية الدراسات العليا وبصفة خاصة لجنة الإشراف والمناقشة.

المستخلص

هذا الكتاب (النيل الأحمر ، مسيرة أعظم أنهار الدنيا) كتبه المؤلف روبرت تويقر ، تغطي هذه الترجمة الخمسين صفحة الأولى والتي تحتوى على المقدمة والجزء الأول من الكتاب.

قارن الكاتب بين نهر النيل والأنهار الأوربية وأخبر عن أحداث تاريخية دموية مرتبطة بالنيل ، ركز على أهمية نهر النيل في الحياة الإنسانية ذاكراً الاكتشافات التي قام بها سكان النيل لأول مرة في التاريخ وتحدث عن صيادي الأسماك وبقائهم في الماء طوال العام. ذكر الكاتب المحاولات التي جرت للسيطرة على النيل وفيضانه وكذلك إنشاء السدود الترابية عليه ، تحدث الكاتب عن مجرى نهر النيل من المنبع إلى المصب من ناحية شكل المجري والحيوانات التي تسكنه (البابون ، فرس النهر والتماسيح) ، ذاكراً كيف أن بعض تلك الحيوانات قد اتخذها سكان النيل آلهة تعبد وتحدث عن البدايات الجيولوجيةللنهر وكيف أنه قد تفرع عن الإخدود الأفريقي وأنه توأم للبحر الأحمر. ذكر الكاتب تأثير النهر على الناس الذين يسكنون على ضفافه وكيف أنه يدفعهم إلى التغير ، تحدث عن الجنس البشري الأول الذي استوطن ضفاف النهر واصفاً هؤلاء الناس بأنهم كانوا صيادين وعقد مقارنة بينهم وبين قبائل الصيد الموجودة حالياً .

ABSTRACT

This book "Red Nile": A biography of the World's Greater River was written by Rebert Twigger. This translation covers the first (50) pages which contains the introduction and part one of the book.

The writer compared the River Nile with European rivers. He told about some historical bloody events that are linked with the Nile, he stressed the significance of the Nile for human life and he listed the discoveries that the Nile people made for the first time ever. He talked about fishers and their families who used to stay on the water all year round. He mentioned the attempts made to control the Nile and its floods as well as the construction of earth made barricades and barges. The writer talked about the course of The River Nile from source to mouth in terms of its physical features, and animals. He mentioned how some of these were worshiped as gods by the dwellers of the River, he discussed the geological beginnings of the River course and explained how the branched from the Africa Rift and how it is a twin of the Red sea. The writer mentioned the influence of the River on its people and how it motivated them to change. He talked about Homo sapiens who inhabited the banks of the Nile. He described the life of those people and mentioned that they were hunters and compared them to the existing hunter tribes.

مقدمة المترجم

وقع إختياري على كتاب النيل الأحمر – مسيرة أعظم أنهار الدنيا لأقوم بترجمته من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية لسبب واضح وهو الأهمية التاريخية والحياتية والثقافية لنهر النيل بالنسبة إلى السودان.

قمت بترجمة الصفحات الخمسين الأولى من الكتاب ، ولم يكن ذلك أمراً يسيراً بسبب صعوبة النص ولكون الكاتب قد ضمن كتابه عدد من الأحداث التاريخية المرتبطة بالثقافة الغربية مثل محاولات المستكشفين الأوربين عبور نهر النيل ولإتباعه أسلوباً غير مباشر في التعبير عن أفكاره مستخدماً جملاً معقدة وتراكيب صعبة لا يتسنى لغير المتخصصين أن يفكوا رموزها.

لجأت في فك هذا الغموض إلى دراسة كل فقرة بصورة مستقلة محاولاً فهم الفكرة الأساسية فيها أولاً ثم استخراج الكلمات الجديدة ثانياً وحاولت صياغة المعنى بالعربية ثالثاً . كانت عملية تحويل المعاني إلى العربية أمراً عسيراً ممتعماً في ذات الوقت وذلك أن المترجم لابد أن يفهم مراد الكاتب أولاً ثم يعمد إلى إفهام القارئ ثانياً ، وأتضح لي من ذلك تباين أساليب التعبير العربية والإنجليزية وأنهما يمكن أن يكونا متقاربين جداً ، وفي حين آخر يكونان في غاية الاختلاف ، وهذا هو الأمر الصعب ، لكن تلك المقابلة المستمرة بين النصوص وإستدعاء أفضل الأساليب العربية المرادفة هو أمر ممتمع أيضاً.

أتمنى من الله التوفيق وعسى أن يكون هذا الجهد نافعاً للباحثين في تاريخ وجغرافيا وثقافات السودان التي يظهر جلياً دور نهر النيل الكبير فيها جميعاً وألا نكون أقل حرصاً من الغربيين على معرفة وإستكشاف كنوزنا التي لا تقدر بثمن.

مرتضى موسى عمر البشير
الخرطوم في فبراير ٢٠١٥م.

جدول المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	الآية	أ
٢	الإهداء	ب
٣	الشكر والعرفان	ج
٤	مستخلص البحث باللغة العربية	د
٥	متسخلص البحث باللغة الإنجليزية	هـ
٦	مقدمة المترجم	و
٧	جدول المحتويات	ز
٨	المقدمة	١
٩	الجزء الأول: الوحوش والبدايات	٦
١٠	رحلة سريعة على النيل	١٠
١١	نهر التغيير	١٨
١٢	النيل ابن الأخدود	٢٢
١٣	الخروج من جنة عدن محملين بالهدايا	٢٥
١٤	آلهة النهر	٢٨
١٥	العَوِق الأحمر	٣٥
١٦	القاتل الأكبر	٣٧
١٧	التمساح يروي الحكاية	٤٤
١٨	النص الأصلي	٤٥

مقدمة

النهر الأحمر

تخيل نهراً يشق ربع أفريقيا، نهر تغذية مجاري مائية أصغر وأنهاراً أخرى ومع ذلك فهو يحتفظ في أذهاننا بوحدة واحدة وهوية واحدة برغم اختلاف الأمم والقبائل التي يمر عبرها. فالقطرة الواحدة من الماء التي تبزغ في غابات بورندي أو بحيرة تانا في أثيوبيا يمكنها أن تكمل رحلتها إلى دلتا النيل في مصر لتصب في البحر الأبيض المتوسط وبالتالي تبرر إشارتنا للنظام الضخم لنهر النيل بالنهر الواحد.

إن نهر النيل نهر عظيم فلو أن نهر التايمز كان بنفس الحجم لما أنتهى به المطاف في (غرافسنت) ولكان قد عبر القناة وأستمر يشق أوربا عابراً كل تركيا وكان قد دخل العراق وصب مثله مثل نهر الفرات في الخليج العربي. تخيل لو أنك سافرت عبر نهر كهذا راغباً في امتلاكه والتحكم فيه. كان هذا حلم رجال وأمم منذ أن بدأت الأمم بأول أمه عرفها التاريخ وهي الدولة المعروفة باسم مصر. ذهبت تلكم المحاولات للسيطرة أدراج الرياح كما طوى النسيان النفوذ وعواقبه ولم يبق من كل أؤلئك غير حكايات تروى. وهذه الأطلال التي بقيت من بنايات كانت يوماً شامخات وتلكم السدود والمعابد والتماثيل التي عفى عليها الزمن.ألم تبق هي كذلك مثلها مثل الأحاديث التي تروى عنها وعن من شيدوها؟ لم يبق من ذلك غير القصص.

وأي صبغة تصبغ تلك الحكايات؟ إنه سؤال مترع بالدهشة ، إن القصص التي تسعتصي على الزوال هي الأكثر طرافة أو المفعمة بالعواطف الجياشة أو تلك التي تقطر بالنجيع. لاغرو أنها حمراء قانية. فالنيل الحقيقي ليس بالأبيض ولا الأزرق ولا حتى الأخضر. إنه أحمر. يا لها من لحظات تلك التي يرتطم فيها عباب النيل الأزرق وهو في كامل فيضانه بالنيل الأبيض. إنه يدفع به فيعود القهقهرى خمسة أميال كاملة وهو إلى ذلك يمزج في مياه الأبيض الرقراق حمولته من الطمي ويحيله لبضعة أيام نهراً من الدماء القانية. إن تلك الهنيهة في ذلك الزمان وفي ذلك المكان حيث يلتقي الأزرق والأبيض في السودان عند بواكير الصيف قرب الخرطوم لهي استعارة أخاذة لأعظم أنهار الدنيا: نهر من الدم ومن الحياة ومن الفناء.

فعندما طلب نبي الله موسى عليه السلام من فرعون أن يسمح لنبي إسرائيل بالخروج فقد حلت بالمصريين عشرة أنواع من البلاء كان أولها أن تحول النيل إلى دم لتموت كل الأسماك. يذكر بعض المعلقيين أن ذلك كان تياراً أحمراً من أزهار طحلبية نادرة على سطح النهر ولكننا في وقت قصير سنكتشكف تفسيراً أفضل لهذا المعجزة الظاهرة. لاحقاً في عام ١٢٤٩م فإن القائد المملوكي الدموي (بيبرس) الذي كان يدافع عن مصر قد وضع السيف على رقاب ثلاثة الآف من الفرنسيين المشاركين في الحملة الصليبية في الدلتا محولاً لون نهر النيل العظيم إلى اللون الأحمر بسبب الدم. إن هذا نهر يجري بشكل طبيعي أحمراً على مر التاريخ، لون الحروب والإيجاد والنضال والهجرات لون المرض ولون النصر.

نهر النيل الأبيض ونهر النيل الأزرق هما نهران مذهلان من حيث الحجم وأنهما نهران كبيران على مستوى العالم. والنيل الأدنى (النهر الوحيد الذي يشق الصحراء الأفريقية) لهو نهر إستثنائي من ناحيته أيضاً .لكن خذهم جميعاً النيل الأبيض والنيل الأزرق والأدنى وستحصل على شيء رائع بالفعل. فهذا ما أخترت أن أسميه بالنيل الأحمر. أنه ذلك النظام الكلي وهو بلا شك اعظم الانظمة النهرية في العام وأكثرها نفوذاً .

ألهم النيل الأسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد ليطلب منابعه ويكشف عن تفسير لفيضانه المعجز الذي يحدث في الصيف. فقد كانت كل أنهار العالم القديم تفيض في الشتاء وكان أحد الأسباب المذهلة التي مكنت مصر من تكديس الحبوب وتأسيس ثقافة حضرية وأول دولة لأمة في العالم هو حقيقة أنك بمجرد أن تحتاج إلى الماء عندما يكون الطقس حاراً وجافاً فإنك تحصل على طن منه. إنه فيضان حقيقي وغمر يفجر الضفاف ويجلب الطمي الذي يهب الحياة لكل حقل. والكمية المنحدرة من الطمي والتي تأتي من الهضاب الأثيوية كانت لا تضاهي في قوة إنماء النبات حتى ظهرت المخصبات الكيميائية. تحصل بالماء وما يحمله الماء من طمي على مكونات دولة كان الرومان يسمونها (سلة غذاء الأمبراطورية).

لم يصل مبعوثو الأسكندر أبداً إلى منابع النيل، لجأ الملك الفتى إلى وسيط الوحي وطلب منه توضيح سر الفيضان في الصيف، لم يحتفظ التاريخ بجواب وسيط الوحي ولكننا الآن نعلم أن الفيضان ينشأ من أمطار الرياح الموسمية الصيفية التي تغمر الهضبة الأثيوبية.

نهر الإيجاد:

إن ضفاف النيل تصدر دخاناً من نيران ساكني النهر. فهناك التماسيح ووحيد القرن والغزلان وطيور أبو منجل وتطفو في وسط النهر نباتات المكحلة – نهر مقدس قديم ومتعرج مثل لغز الإيجاد. يمتص النيل الأحمر كل الحياة والموت ويمضي في طريقه ويتلوى في أعماق أفريقيا بمستوىً يفوق استيعاب البشر.

إن ما كانت بداياته على ضفاف النيل لهوكثير جداً . على ضفة أشجار النخيل وضفة البردي تجد كل الأديان وكل الحياة وكل القصص تجد الرموز التي نكتب بها واللغة التي نتكلم بها والآلهة، الأساطير وأسماء النجوم.هذا النهر العظيم الذي يبدو بطريقة ما غير متعجل ولكنه ينساب دائماً ، كان وما زال أعظم صناع التاريخ وأكثرهم بقاء.

إن من سكنوا النيل لأول مرة هم على الأرجح أول شعوب الأرض كلها، أتوا على امتداد وادي النيل الذي هو امتداد لوادي الأخدود بشرق أفريقيا. إن الأخدود هو موطن نشأة أول المجموعة البشرية الصغيرة المتنافسة. وفي النهاية قد تمكن (هومو سابنس) من إكمال رحلته على الأخدود وعلى النهر ليصل لأوروبا وبقية العالم.

لم يكن الإنسان الأول محدود الخيال بأي حال من الأحوال. فقد تعرفنا عليهم من خلال فنهم ورسوماتهم المنقوشة ببراعة على جدران الكهوف المجوفة ومن خلال أدواتهم وفؤوسهم اليدوية الثقيلة المحارية ورؤوس أسهمهم من حجر الصوان المنحوتة من السليكا (زجاج طبيعي نادر لا يوجد إلا في صحراء مصر، ويعتقد، أنه تكون من نيازك ذات مكونات ضخمة تهشمت في الرمال وانصهرت مع بحار الرمل لتصبح حوضاً أخضراً مذهلاً .

بعد ألف سنة تلت ذلك كانت قطعة كبيرة من هذا الزجاج تنقل على ظهور الحمير ومن ثم تعبر النيل حتى يتسنى للملك الفرعوني (توت عنخ أمون) أن تنحت له على هيئة قلادة وتوضع مع الذهب حول رقبته.

تبقى القصص:

إن التماسيح النيلية هي أقدم من مصر وأقدم من المجرى الحالي لنهر النيل. هناك واحد منها قرب نافذة منزلي في القاهرة حيث ينساب النيل بسهولة متناهية تكتنفه الرياح ويجري دائماً باتجاه الشمال. إن ظهور التماسيح عادة عند وسط بعض ضواحي القاهرة يجري التبليغ عنه كل سنتين أو ثلاث، وقد ظهر التمساح هذه المرة في المعادن حيث أسكن على بعد أميال من مركز المدينة. وبدلاً من أن يكون مخلوقاً متوحشاً فقد كان ذلك التمساح حيواناً أليفا ضجر منه مالكه فأطلقه في النهر. كان التمساح النيلي في مصر القديمة يرمز للحماية وكان من المريح أن يكون موجوداً بجوارك.

يقع منزلي على بعد شارع واحد من الكورنيش الذي كان فيما مضى شارعاً ضخماً ولكنه أضحى اليوم ذابلاً ورثاً . بمحاذاة نهر النيل في القاهرة يمكنني أن أرى الماء نهراً في شكل مستطيل مع نخلة وحيدة ورقعة من السماء الزرقاء، ويمكنني أن أرى في آخر المساء خلال هذا المستطيل الشمس وهي تغرب مباشرة خلف الإهرامات على بعد عشرة أميال مني ، ويتسنى لي رؤية ذلك عندما لا يكون هناك ضباب. بنيت الإهرامات من أحجار جيرية ضخمة حملت إلى هضبة الجيزة عن طريق فيضان النهر. ولو حاولت اليوم أن تبني مثلها باستخدام نفس أسلوب الفراعنة فلن يمكنك ذلك لآن سد أسوان العالي قد قلل الفيضان الصيفي للنهر إلى ما لا يزيد عن ارتفاع قدم.وهذا كل ما تبقى من ذلك الفيضان العظيم في الماضي هنالك دائماً نسمات تهب بإتجاه جريان النهر أو بعكس اتجاه جريانه، ومن اللافت أن النهر غير مزدحم على الإطلاق. تبحر على النهر قوارب النزهة ومراكب صغيرة تسمى الفلوكة وأطلق ذلك الأسم عليها البريطانيون تسمية لها على القوارب البرتغالية. والكلمة أيضاً ذات أصل عربي يبدو مشابهاً . أقدم من ذلك نجد مراكب الصيد التي أنشأها الصيادون ويكون تصميمها بإنحناءه لأعلى مع مؤخرة ومجاديف مربعة الشكل، وهي ذاتها الموجودة في المعابد القديمة في منطقة سكارا.

تعيش أسر صيادي الأسماك في الماء على مدار السنة. فبينما يمتلك الرجال قوارب ذات محركات، فإن للنساء والأطفال مراكب صيد عادية، فهم يقومون بإلقاء شبكاتهم ثم ضرب الماء حتى يسوقوا السمك إلى داخلها. وبنفس الحال بالنسبة للمراكب فهناك نقوشات عمرها ثلاثة ألاف سنة وجدت

في معابد في منطقة بني حسن وهي تصور الصيادين يضربون الماء بنفس الطريقة التي يقومون بها الآن. وهناك نوع أخر من الصيادين يمكنني أن أراه فقط عندما أقترب من النهر وذلك من السياج الخارجي لمطعم (تي جي اي) الذي يقدم في يوم الجمعة البيرة المثلجة ويطل على الماء. يمكنني أرى طائر الرفراف بلونه الأبيض والأسود مقارنة مع اللون الأزرق لطائر الرفراف الأوربي. أراه بغطس من عل لينثر الماء عند اصطدامه بالنهر في ومضة مفاجئة مثل وميض الصورة الفوتغرافية ثم يظهر مرة أخرى على منقاره سمكه فضية اللون ملطخة بالدم

قبل وقت ليس بالطويل فقد قمت باستقلال قارب مطاطي صغير يناسب الشاطئ أكثر من النيل، وأبحرت في النهر في اتجاه الجريان لمسافة ستة أميال من الضاحية التي أسكن فيها إلى مركز المدينة، وعبرت بجانب جزيرة تقول الأساطير أن سيدنا موسى كان قد وضع عليها وهو صغير في سلة بجانب النهر. وتقع على بعد بضعة أميال بإتجاه جريان النهر النقطة التي يقال أن يوسف وميري قد هبطا عليها بعد رحلتهم إلى مصر. ووجدت السكان الحاليين مشغولين بذبح خروف عيد الأضحى. كنت أراهم هنالك على الشاطئ وهم يلوحون بأيديهم يدعونني إلى مشاركتهم. وقفز بعض صبيتهم الصغار لمياه النهر المخلوطة بماء الخراف ليمسكوا بقاربي. لا يدعك النيل الأحمر تفلت من التاريخ لأن النيل هو مصدر التاريخ وقوامه بأكثر من وجه.

كان الناس دوماً ينظرون لنهر النيل تتملكهم تلك الرغبة الجامحة في السفر عبره واكتشاف أسراره وامتلاكه والتحكم في خيراته. تحوي أغلب القصص الإنسانية محاولات فاشلة وناجحة للتحكم بهذا النهر لمدة ألف عام كان التحكم في فيضان النيل يتم بإنشاء ضفاف عالية أو سدود على مجرى النهر. وكان باستطاعتها احتواء الفيضان، وكان يتم إنشاء ضفاف أخرى في التقاطعات لتوجيه الفيضان الضخم يميناً وشمالاً ليصب في أحواض مربعة ضخمة تشكل بحيرات صغيرة يبحر فوقها السكان بمراكب مصنوعة من ورق البردي أو قوارب خشبية أو حتى جذوع الأشجار ، كانت تلك الأحواض تجف ومن ثم تزرع بالحبوب التي كانت تنمو بشكل جيد في تلك التربة المغمورة بالطمي والمروية بالماء. وما تلي ذلك لم يكن هو المسار الرئيسي للتاريخ سنة بعد سنة. فبدلا عن ذلك فقد قمت بإتباع المقولة بخطوة إضافية وتتبعت القصص المكتوبة التي نشأت على فيضان نهر النيل الأحمر قصصا من التطرف والحب والعاطفة والعظمة والموت، الكثير من الموت.

معاكتفائي بأكثر القصص دموية وأفضلها سرداً فقد وجدت أن هنالك شيئاً غريباً يحدث. فقد كانت تلك القطع المتناثرة من القصص تبدأ في الإنضمام لبعضها البعض بطرق غير متوقعة إطلاقاً مثلما يصل الفيضان بين تلك القنوات المائية المنسية ومسارات المياه عندما يأتي عليها. بدأت أتوقع بدلاً من أتفاجأ بتلك الروابط غير العادية بين القصص التي كشفت عنها فمن كان يعتقد أن المكان الذي ملأت منه دماء الصليبين نهر النيل، وهو المنصورة، سيكون نفس المكان الذي سيتم فيه لأول مرة وبعد سنوات قليلة من تلك الحادثة إعطاء وصف دقيق للدورة الدموية، وأن كيلو باترا لم تكن فقط محظية

القيصر التي ستسافر معه في قاربه الملكي في رحلة على النيل، بل أيضاً ستنشئ علاقة مع ذات الملك (هيرود) الذي سيقود ميري وجوزيف لأحقاً للإنضمام إليه في رحلة نيلية أقل خصوصية مع طفلهم الرضيع يسوع؟ أو أن جزيرة على النيل فيها أقدم جهاز لقياس الفيضان ستكون هي ذاتها عاصمة للعبيد المحاربين (المماليك) الذين أبادهم لأحقاً محمد على باشا الذي كان أو من تدخل في فيضان النيل بإنشائه بارجة بعرض النهر؟ أو أن نابليون سيكون بطريقة غير مقصودة سببا في إنشاء قناة السويس وسبباً في ترجمة اللغة الهيروغليفية؟ أو أن (فلوبيرت) سوف يقوم بشكل حرفي بإتباع آثار أقدام عندليبية فلورنسا في الرمال حيث أنه لحق بها بعد أيام في جولة نيلية؟ أو أن (ستانلي) الذي أكتشف (ليفين ستون) كان أول رجل يصل إلى منابع النيل الأزرق قبل منابع النيل الأبيض عندما كان يغطي حرباً في أثيوبيا غير معروفة اسمها حرب الفيل عام ١٨٦٨م. وكان يصحبه (جيمس غراند) الذي كان أصلاً قد زار منابع النيل الأبيض ويزور وقتها النيل الأزرق؟ أو أن الرجل الذي كان من بنات أفكاره سد أسوان العالي كان مخترعاً يونانياً منعزلاً قد أستلهم أفكاره من أول رجل عربي حاول أن ينشئ سداً على النيل وهو أبن الهيثم والذي أكتشف بدوره آله التصوير بالصدفة؟ أو أن أول رجل يقوم بتصوير النيل (ماكسيم دوكامب) سيكون الرجل الذي جعل من غير قصد منه (فلوبيرت) يكتب رواية مدام بوفاري التي هي أول رواية حديثة على مستوى العالم. هذه هي فقط بمثابة بعض القنوات المائية ومصارف الري ورقع المياه اللامعة التي تصاحب أي رحلة تاريخية على النيل.

اتخذت القرار السهل بالا أسافر من المنبع إلى البحر بذات القارب المطاطي الذي طفت به مدينة القاهرة أو بأي قارب أخر صالح للملاحة، تركت مزلاجتي في البيت إن جاز التعبير وامتنعت بسهولة عن إغراء التزحلج على الماء على طريق جيمس بوند من يوغندا إلى البحر الأبيض المتوسط. ساحتاج إلى أن أقرأ بمثل احتياجي لقطع الأميال. وبدلاً عن ذلك سأسافر بالسرعة التي تناسبني. وأن أكشف عن أفضل القصص بكل جوانبها المشرقة والمظلمة والتي هي قصص حمراء بالكامل. وكلما كانت أغرب كانت أفضل لتعكس دماء وأحشاء هذا النهر التي تتدفق في التاريخ. لا تبقى إلا القصص.

الجزء الأول
النيل الطبيعي
الوحوش والبدايات

١. المنبع:

(تكمن قوة التمساح في المياه) مثل يوغندي:

يجب أن يبدأ المرء دائماً من البداية وعندما نتحدث عن نهر فإن البداية تعني المنبع. لكن أين هو ذلك المنبع بالضبط؟ رغما عن وربما بسبب التطلع العالمي لايجاد منابع النيل فإنه حتى الآن يظل موقع المنبع بالتحديد أمراً غير محسوم. إن البحث عن المنبع الحقيقي للنيل يشبه أن تقوم بزيارة مدينة "سترانت فورد" لتكتشف بعدها أن نقطة الجذب التجاري التي يطلق عليها (مسقط رأس شكسبير) هي ببساطة من اختراعات القرن التاسع عشر، وأنه في الواقع لدى شكسبير عدة مساقط رأس متنافسة، وطبقاً لأوثق المصادر فإن الموقع الحقيقي لمسقط رأس الشاعر هو الآن موقف سيارات.

في العصور القديمة فإنه عند الحديث عن تسمية المنبع الحقيقي للنيل فقد كانت يقع خلط بين مصدري النيل التؤمان النيل الأبيض والنيل الأزرق. ينبع النيل الأزرق في أثيوبيا والنيل الأبيض ينبع في أفريقيا الوسطى. يوفر النيل الأزرق في فصل الصيف الممطر ٨٥% من المياه التي تعبر الصحراء إلى مصر. ولكنه في فصل الشتاء الجاف فإنه يمكن تجاهل مساهمة النيل الأزرق لأنها أقل من ٥% ويمثل النيل الأبيض موفر المياه الرئيسي. ويمكن لك في الصيف أن تقول أن منبع النيل هو النيل الأزرق وفي الشتاء هو النيل الأبيض.

هنالك تعريف أخر يبدو مقبولاً أكثر وهو أن المنبع ببساطة هو أبعد نقطة في النهر من نهايته في الدلتا عند البحر الأبيض المتوسط حين يصب في البحر. والنيل الأبيض هو بكثير أطول الفروع المساهمة في النيل وبدايته الرسمية هي حيث يفارق بحيرة فكتوريا في مدينة جنجا.

لكن هنالك أنهار تغذى بحيرة فكتوريا أيضاً، وأطول هذه الأنهار هو نهر كاجيرا. وهو نهر ذو محيط وقوة معتبرة بدرجة أكبر من العديد من الأنهار الأوربية. فهو يجعل نهر التايمز يبدو صغيراً وتافهاً. ورغما عن أنه لا يحمل أسم النيل فإن نهر كاجيرا بوجه من الوجوه يعد بمثابة الأم لنهر النيل بطوله البالغ ٤٥٠ ميلاً. أنه نهر عظيم بالنظر إليه وحده وهو صالح للملاحة في امتداداته الدنيا. ولكن في أعالي النهر فهو يمر بصدوع عميقة ومساحات من المستنقعات يغطيها نبات البردي. وهو في أعاليه لا يزال بحيوية أنهار الجبال. فهو يصرف مياه جبال البحيرة التي تمتد من سلسلة روين زوري والتي تعرف في العصور القديمة باسم جبال القمر.

إذن فإن المنبع الحقيقي لنهر النيل على ما أزعم ويزعم الكثيرون غيري هو منبع نهر كاجيرا وهو بالذات ما جئت باحثاً عنه. لم يكن ذلك أول استكشافاتي النيلية. فقد كنت أسافر على النيل جيئة

وذهاباً لعدة سنوات منذ أن أنتقلت للقاهرة في العام ٢٠٠٤م. ولكن أحسست وكأن ذلك كان بداية المرحلة الحالية "مرحلة كتابالنيل" كما كنت قد بدأت أنظر إليه.

لكن التعقيدات تزايدت، فنهر كاجيرا له العديد من المنابع الخاصة به، ويقع معظمها في غابات رطبة يصعب الوصول إليها. وقياس أطوال الأنهار من الخرط وصور الأقمار الصناعية لم يكن يوماً علماً دقيقاً . فهل ستقيس على سبيل المثال اتجاه المنحنى الداخلي أم من المنتصف أم من الخارج؟ يمكن افتراض أنك ستقيس من الوسط، ولكن ماذا عند الحالة التي يمر فيها النهر بالجزر؟ الجزر التي تحركت فعلياً كما هو الحال بالنسبة لبحيرة مستنقعات السد في السودان والتي يجتازها النيل؟.

في بعثة سابقة كنت قد أشتركت في مهمة طريفة لقياس الثعابين الطويلة المسماة بالأصلة والتي رفضت أن تمتد بشكل مستقيم. والأصلة قوية وأفضل ما يمكنك توقعه من ناحية أمتدادها باستقامة هو خط متموج مثل النهر. ومعرفة طولها أثناء حركتها بشكل ملتوي هو فن أكثر من كونه علماً رغماً عن تقنية القياس الدقيق للأطوال.

قامت بعثة عام ٢٠٠٦م والتي سافرت عبر النيل بقوارب مطاطية ذات محركات مزودة بأجنحة مزلاجات للطيران فوق المنحدرات المائية لقياس مسار رحلتها أثناء التحرك. وحصلنا من خلال هذه القياسات العملية أكثر من كونها نظرية على طول رسمي بلغ ٤١٧٥ ميلاً (٦٧١٩ كيلو متر) وقد بحثت هذه البعثة بحثاً متفانياً عن أبعد منبع أمكنهم الوصول إليه، وذلك المنبع هو بالضبط ما قررت أن أطلبه.

كان من المفترض أن يكون السعي بخطى متثاقلة نحو هذا المكان الذي حظي بأكبر رحلات بحث سعياً بالغ الأهمية، كنت أداوم أن أقول لنفسي فكر بالتاريخ ولكن هنا في غابة"نينقوي"الرواندية – الغابة التييتقطرمنها الماء– فلم أحس بأي شيء مميز إطلاقاُ. في البداية إنه حتى قطعان حيوانالسعدانالتي انسحبت مبتعدة لم يكن باستطاعتها إثارةإهتماميفقد قيل ليانهاتخشى من صيادي الحيوانات البرية.

كنت أظن أن لدى معرفةبالانهار.فقد تتبعت واحدا من أطول أنهار كندا وهو نهرالبيسمن مصبه في بحيرة أثاباسكاإلى بدايته في"روكيز"المكسوة بأشجار الصنوبر. كنت قد كتبت عن رحلتي التي امتدت لثلاثة فصول في اتجاهمعاكس لجريانه الشرير في كتابي "الرحالة". أقول عنه شريراً لأن نهرالبيسهو بوضوح نهر لئيم بالمقارنة مع نهرفراسرالقوي مع اللطف. لكل نهر شخصية أخلاقية (شيء غريب ولكنه حقيقة) وتكتشف ذلك عادة عندما يحدق بك الخطر وأنت تمضي عكس اتجاهه ويتبينلكذلك عندما تشرب منه أو تتبول فيه مشاهدا مزاجه الهادئ ومزاجه الغاضب. ولكن عندما تمضي في اتجاه النهر فمن الصعب أن تتمكن من معرفته. وهو نفس الأمر مع الناس، فأنت تكتشف حقيقة الناس عندما تقف ضدهم وتغضبهم أو يغضبونكأو تكافح معهم سويا ضد محنة مشتركة. إذا استسلمت لنهر آخر وجعلته يحملك باتجاهه فمن المرجح أن تغفو في سبات أكثر من احتمال تعلمك لأي شيء.

لن أقوم برحلة مكتملة مثل أن أتتبعه جغرافيا من المنبع إلى المصب أو من المصب إلى المنبع مثلما فعلت مجموعةالمغامرين تلك مستخدمة مزلاجات معلقة للقفز فوق منحدرات النهر .ساورني الشك أن ذلك سيكون من أكثر الوسائل الباعثة على الملل التي يمكن اتباعها لدراسة نهر غني من الناحية التاريخية كما هو غني من الناحية الجغرافية. إن خبرتي كمستكشف معاصر يقوم برحلات طويلة وصعبة إلى أماكن لم يصلها غيري (على الأقل في الماضي القريب) تتمحور حول أن الصعوبة التى تواجهك في البقاء مركزا على هدف رحلتك، متجاهلاً ما يعرضه عليك سائقو السيارات العابرة للركوب، متجاهلاً نقاط التقاطع في المدن، ذاهباً في جولات محلية، تقول خبرتي أن ذلك يمنعك من التفاعل مع أو ملاحظة الدولة التي تقوم بالتجوال عبرها، إن ذلك يشبه رحلة الإبحار على الماء التي قمت بها مؤخراً أثناء رحلتي النيلية. فقد كانت كل تجربة مشابهة لسابقتها أكثر من كونها مختلفة. فقد سعى المرشدون السياحيون إلى تحويل كل الأمسيات إلى حفلات مسائية على الشاطئ، حفلات فيها الشواء تداعب حواسك برائحة الشحم وهو يطقطق فوق الجمر المتوهج. وكلما أصبحت الرحلة تجربة حسية كلما ملت لتجاهل الجوانب غير المحسوسة. لكن نهر النيل ليس هو مجموعة عادية من المنحدرات النهرية من الفئة الخامسة تفصلها مياه عادية. إنه نهر ذو أهمية إنسانية كبيرة.

في بادئ الأمر وبمجرد أن لمحت البركة الموحلة والتي عرفت مباشرة أنها المنبع، فقد تملكني شعور غريب بالرضا. لم يكن هو ذات الإبتهاج الذي توقعته منذ فترة طويلة عندما كنت أعد الخطط واشتري تذاكر السفر وأخبر الناس بالأمر. فقد كان بدلاً عن ذلك شعوراً غريباً بالرضا، ومما يثير السخرية أنه لم يكن مختلفاً عن الشعور الذي أحسسته عندما زرت (لقولاند) لأول مرة. الطراز الكامل من عالم (لقولاند) الصغير (الجبال والبلدات والمدن والمرافئ والأدغال كلها مبنية من (الليقو) في زيارتي الأولى جعلني أشعر بالدهشة الممزوجة بالاستغراب، عالم كامل تضعه في راحة يدك ومع ذلك فهو عالم قائم بذاته.

كان منبع كل ذلك بركة موحلة صغيرة وسط أدغال رواندا. كنت قد أجبرت مرشدنا السياحي وأسمه بيوس على إتخاذ مسار كان يعتقد أنه مستحيل ولا جدوى منه. سلكت ذلك المسار مستخدماً جهاز GPS الخاص بي كان أصغراً زهيد الثمن ولطالما كنت أعتبره صديقاً عزيزاً، سلكنا سبيلنا خلال أعشاب غريبة لها آلاف الأشواك عابرين الخنادق وجذوع الأشجار المتعفنة الرقيقة مثل قشرة الفطير لنصل إلى النقطة التي قال عنها المستكشفون في وقت سابق من تلك السنة أنها هي المنيع الحقيقي لنهر النيل بالنسبة إليهم بحسبانها أبعد نقطة من نهاية النهر في الدلتا المصرية، والتي يصب عندها في البحر الأبيض المتوسط. جلست بجانب البركة واستخرجت بإهتمام وسعادة سلاحي السري وما أسميه قطعة إنجاز الأعمال. كما أسميه السحر الخاص بي وهو مضخة تصفية صغيرة من النوع SI ١٠٥ والتي أضمن أنها ستقوم بتنقية ٥٥ لترا (١٢جالون) قبل أن تستنزف. إنها بحجم معجون الإسنان الكبير مع مواسير مطاطية تمكن المرء من أن يقوم بامتصاص الماء من جذع شجرة على سبيل المثال أو من أحد

الشقوق القريبة. كان أروع شئ في SI ١٠٥ هو ذلك المصفي المثبت في نهاية أنبوب المص، فهو مصفاة ممتدة مع شبكة دقيقة مثبتة عليه تقوم بمنع الرواسب من التجمع، وهو ما حصل مع مضخة المياه السابقة التي كنت أستعملها. الفكرة كانت بسيطة بشكل شيطاني. فقد قررت فقد أشرب من النيل من جميع النقاط التي تثير اهتمامي سواء من الناحية التاريخية أو النفسية او الروحية أو شئ ذو أهمية يمكن أن يخطر على بالي. سيكون بإمكاني أن أخذ (٥٥عينه) وهو أكثر من كفاية، تمنيت إلا أصاب بمرض ولكن طردت تلك الأفكار عني وقلت أنه لا يوجد نجاح من غير ألم، بجانب أنني لا أعلم أي طريقة أخرى لاستكشاف النهر بكل فخره ومجده باستثناء طريقة واحدة، وهي أن أسبح فيه. كنت أصلاً قد نزعت حذائي وغمست أصابع قدمي في الوحل، نزعته قبل أبدأ بضخ المياه مستعيداً بذاكرتي قصة تحكي عن (أورد وين قيت) ذاك القائد الجهنمي المبهم الذي أصر أن يسرع إلى مقدمة فرقته العسكرية حينما وصلوا إلى حفرة مياه ونزع ملابسه وألقى بنفسه في الماء قبل أن يتمكن أي من رجاله أن يشرب من الماء. ولكن ذلك كان في المنبع الآخر (منبع نهر النيل الأزرق).

أتى الماء صافياً ومغرياً بالشرب، ظننت أن (بيوس) وصديقة (بيتر) سيشعران بالضيق ولكنهما بدلاً عن ذلك أظهرا ابتسامة عريضة وأظهرا رغبة في مشاركة كمية الماء البالغة نصف لتر والتي تمكنت من ضخها في زجاجة الماء والتيأعتبرها صديقاً آخر (من جملة معدات السفر التي يجدر بك أن تكون حريصاً على اصطحابها معك لتحول حياتك اليومية إلى أيقونة وتجعل الأشياء الجديدة وغير المتوقعة أمراً طبيعياً.

كان طموحي مثل (روجر دايكن) المبجل الذي سبح على طول انجلترا، كان طموحي أن أسبح وأشرب من النيل طوال رحلتي عليه. وكنت ملتزماً بذلك لفترة ثم صار الأمر يبدو بالنسبة إلى سخيفاً نوعا ما، فلماذا أخاطر بتعرضي للمرض أو أن يلتهمني حيوان ما فقط لأجل كتاب؟ وقد أدى ذلك غرضه، فقد جعلني أتحرك وأنظر إلى النهر وأرى فيه مصدر الماء والحركة الرئيسي لكل الإقليم منذ عهود بعيدة إلى هذا القرن الذي ظهرت فيه الرحلات الجوية والمياه المعدنية المستخرجة من الآبار المحفورة في الصحراء النوبية التي أخذت تحل محل مياه نهر النيل. وحتى الآن فليس بمقدور أي أحد من غير الأغنياء أن يقدر على تجاهل سخاء نهر النيل.

قررت أن أتابع تعرج المجرى. كان ذلك مهما، فقد تجنبت بسبب الضرورة المعرفية تلك الطريقة الخطية الصرفة لدراسة نهر النيل. وتبقى فقط الأسلوب التاريخي وأسلوب الجغرافيا النفسية والأسلوب الشخصي وأسلوب تتبع تعرج المجري. كان التاريخ بالتأكد هو مصدري الأساسي. لكن بالنسبة للجغرافيا النفسية، قد كان ذلك الأسلوب أقل تشجيعاً . وبينما قد أستحسن عمل وأساليب المتخصصين بالجغرافيا النفسية. فقد كنت أعلم أن تلك اللباقة الغربية سيتم تجاهلها بالكامل في أفريقيا لأنه بالنسبة للتفسيرات المحكمة لعلم النفس فإنها ستبدو مثل الأقزام. وسوف تغرق في الأساطير عندما تغادر تخوم المدن الغربية المريحة ودفء الضواحي بحرم الجامعة. فأي نوع من التحليل النفسي يمكن للمرء أن يطبقه على

قائد جيش الرب (جوزيف كوني) الذي أمر رجالة أن ينزعو شفاه الأطفال الذين أثاروا سخطه؟ أو على نابليون الذي أجتاح مصر عام ١٧٩٨م. واضعا نصب عينية أرض فارس والهند وبقية العالم؟ أو على أول سلطانة لمصر (شجرة الدر) التي إغتالت أحد أزواجها داخل الحمام وتظاهرت بأن الآخر كان لا يزال على قيد الحياة بينما كان هو في الواقع قد فارق الحياة؟ طالما ساعدني الأسلوب الشخصي وأسلوب التجوال على نحو مثير للدهشة في مجابهة تلك الفظاعات وأتمنى أن يساعدني كذلك مرة أخرى مع نهر طويل ومتعرج مثل هذا.

٢. رحلة سريعة على النيل :

(على ضفاف النيل لا يستخدم الناس قطرات من الماء). مثل مصري

مشكلة أي كتاب يحاول أن يروي قصة جغرافية وتاريخية أو سلسلة متصلة من الحكايات هي أن الجغرافيا تبدأ من المنبع (إذا كنا نتحدث عن الأنهار) وتنتهي في البحر بينما يمكن للتاريخ أن يتنقل بين جنبات النهر مرتين في الجيل الواحد. من الواضح أن بعض المواقع تجذب أحداثاً تاريخية أكثر من غيرها مثل القاهرة مثلاً والأدغال المظلمة بأعالي النيل. ولكن من أي طريق تعبره فإن أي تاريخ لنهر النيل يستلزم معرفة الكثير من الجغرافيا قبل أن تبدأ، وإلا فإنك بانتقالك بين جنبات النهر ومساره متتبعا على سبيل المثال من الناحية التاريخية الجنرال (هورتيو كتشنر) في مهمته للأخذ بثأر غردون وبنفس الوقت إنقاذ نهر النيل من السيطرة الفرنسية التي كانت تزحف من الكنغو، فأن المرء يحتاج أن يعرف أين موقع قدميه: أسماء الأماكن وأسماء المنحدرات والشلالات والروافد. تساعد الخرط كثيراً في هذا الشأن، لقد ضمنا بعضا منها في هذا الكتاب. لكن أنت لا تزال في حاجة إلى صورة ذهنية كاملة للنهر قبل أن تبدأ وبالتالي فإن رحلة على قارب آلي أو طائرة تستغرق على ما أتمنى ليس أكثر من عشر صفحات ستجعلك منهمكاً في معرفة نهر هو في الواقع نهر طويل جداً جداً .

أولاً : بالنسبة للذين لم تسبق لهم رؤية نهر النيل فكيف يبدو النهر؟ سوف لن أنسى خيبة الأمل التي شعرت بها حين رؤيتي لنهر المسسبي العظيم في مدينة نيو أورلينز. فقد كان موحلا وسخيفاً ولا يعلق بالذاكرة. وكوني واقفا على منصة المشاهدة فإن ذلك لم يحسن من الأمر شيئاً . فقد كان أهم ما فكرت فيه أن النهر ليس واسعاً. وقد كنت أتوقع شيئاً مثل (باهماترا) متسعاً بحيث لا يمكنك أن ترى الجانب الأخر، شيء يملؤك بذكريات عن بحيرة أو بحر أكثر من نهر. لقد كان نهراً عادياً مثل التايمز في (ديبت فورت). كان المسسيبي بوضوح نهراً يمكن إغفاله (أنا هنا أتحدث عن نيواورلينز فهو يتسع في أماكن أخرى) في القاهرة حينما يلتف النهر على الجزر الموجودة في منتصفه، فإنه أيضاً يمكن أن يبدو ضيقاً. لكن أذهب إلى شواطي النهر وحينها ستبدو لك عظمة النهر وهدوءه ظاهرة للعيان. فقد مر هذا النهر بأماكن كثيرة ولكن لا يبدو عليه من خلال نسيمه الهادئ أنه قد تعب من رحلته (ليس إلى الآن على الأقل). فهو نهر سريع عابر للقارة بأكملها. هو سريع بالمقارنة مع أي نهر إنجليزي. هنالك مناطق يتسع فيها النهر مثل بحيرة كيوغا شمال بحيرة فكتوريا وكذلك في إمتدادات النهر في السودان وأعالي مصر.

ولكن هذا النهر لا يشبه أبداً نهر الكنغو ونهر الأمازون اللذان هما نهران تصب فيهما المياه على طول مجراهما خلال الأمطار الاستوائية. فنهر النيل يقضي أغلب وقته عابراً صحارى وسافنا جافة فهو لا يقل عن مصرف جالب للحياة والري. لا توجد مدن كبيرة جنوب مصر واقعة على النيل باستثناء الخرطوم فهو نهر نظيف ويبدو عليه ذلك، هناك بعض الأوساخ في القنوات وبعض الشواطئ وأماكن الغسيل في القاهرة التي تجد فيها النساء حتى الآن يأخذن القلال والأواني إلى النهر ويغسلنها هناك. قد تجد قوارير المشروبات وأكياس البلاستيك. لكن ليس هناك قمامة مثل التي تراها على الشوارع حول المناطق المزدحمة (التي استبدل فيها جامعو القمامة الذين كانوا يستخدمون عربات تجرها الحمير مع أنهم كانوا في غاية الكفاءة بدعوى انهم صاروا موضة قديمة).

لكن ماذا عن شخصية النيل؟ كنت قد ذكرت أن كل الأنهار لها شخصية أخلاقية. فهو شئ لا يمكن تعريفه ولكن هذه الشخصية تظهر لاؤلئك الذين يقضون أوقاتاً طويلة في صحبتها. وميزة النيل أنه يعتمد عليه فرغما عن كل فيضاناته ومجاعاته فهو نهر يمكنك الاعتماد عليه. فهو لا يسرع بك إلى حتفك عندما تسقط فيه بل سيحملك بأمان ربما إلى الشاطئ. يجب أن أقول أنني أتحدث هنا عن النيل الأدنى (خليط النيل الأبيض والنيل الأزرق) ورغماً عن شلالاته ومساقطه فإن النيل الأبيض في أعاليه له أيضاً نفس إحساس الاعتماد. النيل الأزرق بكامله نهر أكثر جموحاً ولا يمكنك إلى حد كبير أن تتوقع ما يحدث منه وميزته الأخلاقية هي الجموح الكامل مثل جموح نسر أو طائر افتراس. يمكن لك أن تخضعه للعمل لكن لا يمكن لك أبداً أن تثق فيه بالكامل. أدر ظهرك للنيل الأزرق وستشعر أنه سيغرقك.

لدينا الآن تلك المنابع المتعددة لنطوف عبرها وندرسها: ينبع النيل الأزرق في أثيوبيا في بحيرة تانا، أو بالأصح ثلاثين ميلاً من بحيرة تانا. وينبع النيل الأبيض من ذلك الجزء في أفريقيا حيث تشترك دول أفريقية كثيرة مع بعضها: يوغندا وكينيا والسودان والكنغو ورواندا. شغلت المنابع ذهن الإنسان ولكنها لا تعدو كونها جزءاً يسيراً من هوية النهر، تلك الهوية التي تغطي عليها المناطق التي تمر عبرها النهر. لا بد أن نعتبر النيل الأزرق بفيضانه الصيفي الهائل المحمل بالمياه هو بمثابة الأم لنهر النيل ، ولكننا سنبدأ رحلتنا السريعة بالنهر الذي يتفق كثير من الناس أنه بداية النيل الأبيض: الأب لجميع فروع النيل (نهر كاجيرا) والذي يعتبر المنبع الأقصى للنيل الأبيض والذي يشق طريقه مثل الثعبان من أدغال رواندا إلى الساحل الغربي لبحيرة فكتوريا، لكن من أين تأتي المياه فعلياً؟ تماماً مثلما أن نهر النيل الأزرق تغذيه أمطار الرياح الموسمية التي تضرب الهضبة الأثيوبية فإن النيل الأبيض يتلقى أمطاره من عواصف جنوب الأطلسي التي تصل مشبعة بالرطوبة إلى الساحل الأفريقي بما أنه لا تواجهها أي مقاومة حقيقية إلى أن تضرب جبال الأخدود الأوسط. فإن الأمطار تهطل ويتم تصريفها باتجاه الشمال بينما يتم تصريف التساقط الذي يضرب الجبال الدنيا حول بحيرة تنجانيقا في حوض الكنغو ومن ثم تعود إلى المحيط الأطلسي. ومن المثير للاهتمام أن بحيرة فكتوريا، البالغ عمقها ثلاثمائة قدم ومساحتها أكثر من

خمس وعشرون ألف ميل مربع، هي في الواقع تخسر المياه وذلك لأن ما يصب داخلها أكثر مما يخرج منها ويفقد الباقي عن طريق الرياح بسبب التبخر.

في أول مراحل حياته بعد شلالات (أوين) في بحيرة فكتوريا فإن النيل يمر بمنحدرات خلال غابات غير مأهولة عادة بسبب تفشي مرض النوم، والنهر هنا جامح ولم يكن ممكنا قبل أكتشاف المزلاجات الحديثة الهبوط فوق منحدراته بأمان. وكانت الأفيال فقط هي التي تستطيع عبور تلك الغابات الاستوائية الكثيفة على جانبي النهر. وأصبحت آثار أقدام الأفيال مساراً للمستكشفين الفضوليين الذين تجاهلوا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تجنب المناطق التي يتفشى فيها المرض. وقد دفعوا ثمن ذلك بسبب إصابتهم بحميات غريبة وسخونة وتغيير غامض في البشرة وآلام في العظام وقشعريرة ليصبح ذلك سمة ملازمة لكل من تجرأ على الدخول إلى قلب أفريقيا.

يموت كل عام في أفريقيا حوالي (٥٠٠٠٠) شخص بسبب مرض النوم الذي تسببه ذبابة تسي تسي وهو مرض طفيلي (أمبيا). التي تجتاح في النهاية الجهاز العصبي وتسبب إذا لم يتم علاجها الإعاقة والوفاة. هناك الآن عدد من خطوط الدفاع وأدوية متنوعة وعلاجات أدت لاستئصال المرض من بعض المناطق، يعتبر مرض النوم الآن مشكلة في مناطق أخرى أكثر من كونه مشكلة في الأراضي الواقعة بعد بحيرة فكتوريا. وذلك لأنه أنتشر بشكل أوسع بسب تجار الرقيق العرب والمستعمرين من منبعه الأصلي في أقاليم أعالي النيل.

الأربعين ميلاً الأولى من النيل الأبيض ليست سريعة الجريان وجامحة كما كانت من قبل ويقل فيها الآن انتشار المرض. وأصبحت منحدراتها أكثر سهولة بفضل إنشاء سد شلالات أوين (أعيدت تسميته الآن باسم نالو بالي). ويبلغ طول هبوط هذه المنحدرات الى ستمائة قدم في هذه الأميال الأربعين. ومن السهل أن نفهم لماذا قرر المستكشف (جون هاننغ سبيك) في عام ١٨٦٠م أن يتجنب الهبوط المباشر من النهر رغما عن أنه لو أمكنه أن يتحدى الأمراض والمساقط لوجد المائة وعشرين ميلا التالية صالحة للملاحة بشكل كامل. يتسع مجرى النيل إلى ما يقارب مسافة ثلث الميل وتبدأ الغابات في التقهقر ويبدو كما لو أن شخصاً قد أستخدم شركة غابات لتخفيف كثافة الأشجار بذلك الشكل الساحر لتنسجم مع المناظر الطبيعية، إنها الطبيعة وحدها ما أدت تلك المهمة.

يتسع النيل في المجرى لمسافة ميل بينما يأخذ قاعه في الاقتراب شيئاً فشيئاً ويصل إلى أقل من عشرة أقدام في العمق، ويمكنك أن ترى الأسماك وهي تصعد لتستنشق الهواء. ومن تلك الأسماك سمكة البيرش وسمكة القطة وسمكة الفيل وسمكة تلابيا. يأخذ النيل في الإتساع أكثر فأكثر إلى أن يتحول إلى بحيرة كيوغا وهي قطعة مياه عريضة موحلة تحفها أعشاب النيل وهي مقدمة للمستنقعات التي ستظهر بعدها قريباً . بينما ينساب النهر خلال تلك البحيرة لمسافة ستين ميلاً فإنه يحمل معه أعداداً من زهرة السوسن المائية ذات اللون الأزرق الشاحب والتي تمتد مثل السجاد الصيني على سطح متحرك. تتلقى البحيرة رافداً جامحاً آخر وهو نهر كافو عند نهايتها الشمالية ولو أن ذلك الرافد قد دخل مبكراً إلى تلك

البحيرة المملوءة بالمستنقعات لتم امتصاص قوته لتصبح قليلة لدرجة يمكن تجاهلها مثلما كان قبل آلاف السنين ولأصبح النيل مستنفداً وفاقدا قوته المحركة قبل أن يبدأ نصف مشواره.

بعد نقطة التلاقي تلك يبدأ النهر في التحليق متبعاً التواءاته الباعثة على النوم. تذكرت أحجية الفيلسوف عن هوية المكنسة التي جرى تغيير فرشاتها ومقبضها عدة مرات، هل هي المكنسة نفسها؟ نفس الشيء فإن النيل يعيد شبابه على طول مساره ويفقد كثيراً من مياه منبعه بعيداً قبل أن يصل إلى البحر، ومع هذا فهو يحتفظ بهويته عن طريق عملية غامضة.

يتغير أوّل المستنقعات فجأة ويبدأ قاعه النظيف المملوء بالصخور في الظهور مرة أخرى بينما يشق النيل طريقه باتجاه الغرب ويصبح مجرى مائي جبلي (وهو تعبير أطلقه المستكشف جون أسبيك وأصبح مثار للسخرية من أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية الشجعان). كيف يمكن أن يطلق على نهر النيل العظيم أسم مجرى مائي؟ إنها إهانة! مع ذلك فإن الذين سبق لهم أن رأوا اتساع نهر النيل الذي يقاس بالأميال ورأوا شراسته وهو يضغط في ممر ضيق عرضه عشرون قدماً يمكنهم أن يفهموا أن الوصفين يمكن أن ينطبقا على نهر النيل. فهو هنا في شلالات (مرشيسون) عندما رآه لأول مرة المستكشف (صمويل بيكر) ينضغط ثم ينطلق من سلسلة صخور تحت الماء إلى أخرى متوجاً بقوس قزح ثابت والذي اعتبره المستكشف بيكر رمزاً للحظ السعيد.

تبقى الرغوة فوق النهر لمدة طويلة بعد ارتطامه بشلالات مرشيسون البالغ طولها ١٤١ قدماً، ولكن النهر يتسع بسرعة مرة أخرى عندما تصبح الصخور أقل ظهوراً. هنا في هذه المناطق تجد حيوانات وحيد القرن ومئات من التماسيح وهي تستلقى تحت أشعة الشمس فوق الصخور. ويبدو أن هذه الحيوانات تنتظر راكبي القوارب تعيسي الحظ الذين يمكن أن يدخلوا في هذه المياه من غير حذر. يدخل النيل الآن في مقدمتة إلى بحيرة أخرى وهي بحيرة البرت. في ضفتي تلك البحيرة فإن الغابات تحل محل الحشائش وتبدأ كذلك كل مظاهر الحياة البرية في الظهور ثم تضاف طاقات أخرى لنهر النيل بالمياه المجمعة في بحيرة البرت القادمة من جبال القمر (سلسلة جبال روينزري).

أن جبال القمر هي في حد ذاتها مذهلة. سوف نعود إليها لكي نلقي نظرة عن قرب، ولكن في الوقت الحالي سننظر إليها فقط في لمحة سريعة من نافذة الطائرة وهي مغطاة لمدة ٣٠٠ يوم في السنة بالسحب مع تلك القمة الجبلية المسماه أستتلي وهي تبرز مثل جزيرة مسحورة من بحيرة مسحورة.

يفقد النهر سرعته بشكل سريع ويصبح في شكله مشابهه لأمعاء وحش ضخم. بالنسبة لضفاف النهر فهي من نوع السافنا الخفيفة (مجموعات من الأشجار السميكة القصيرة). بينما يتسع النيل ويبدأ في التحليق والالتفاف، فأن سرعة جريانه تنخفض بشكل كبير إلى درجة أن يصبح من الصعب تحديد أي اتجاه يجري فيه كما هو الحال بالنسبة لمريض في غرفة الإنعاش فلا تقدر إلا المعدات المتقدمة على معرفة ما إذا كان على قيد الحياة أم لا. نحن الأن ندخل إلى أكبر مستنقعات العالم وهي بحيرة السد.

تخيم عزلة من نوع خانق على منطقة بحيرة السد ويكاد النيل أن يكون قد ضاع في أثناء تجواله في تلك المستنقعات التي هي أكبر مستنقعات العالم في نسخة قديمة من النيل قبل ملايين السنين فإن منطقة بحيرة السد كانت هي نهاية هذا الجزء من نهر النيل ولكنها الآن مجرد معوق لجريانه ولكنه معوق كبير سيتمكن النهر في النهاية من تجاوزه.

يتسع النهر ولكن يظل في حدود ضفتيه حتى خلال وقت الفيضان وتمتص الأرض المياه الزائدة وتمثل الجزر العائمة علامة على مستنقعات ستظهر قريباً، حيث تسيطر المستنقعات من منطقة بور إلى بحيرة نو الواقعة ٣٠٠ ميل باتجاه الشمال. أثناء طيراننا فوق النيل بطائرة ذات ستة مقاعد فإن النيل بلونه البني المحمر يبدو متموجاً وتجمع بين مياهه كميات من الطمي الأبيض. تحول المستنقعات الأحواض نهر النيل إلى مياه ضحلة يغطيها نبات البردي وأعشاب الفيل تغذيها بعض القطع المنعزلة من التربة ولذلك تسيطر الأعشاب على منطقة المستنقعات.

لم يكن ممكناً التغلب على مستنقعات بحيرة السد إلى حلول العام ١٩٠٠م حين بدأ الكشف عن عمليات تجوال داخل منطقة المستنقعات ورغماً عن أول عملية عبور إلى أوحال قد تمت في ثمانينات القرن التاسع عشر فإن البريطانين في عام ١٩٠٠م كانوا هم من قرروا أن تكون المنطقة صالحة للملاحة كلياً. كانت العملية شاقة واحتاجت عدداً من العمال. وكانت أول مشكلة هي تحديد ما إذا كانت النباتات التي تغطي النهر جزءاً من الضفة أو جزءاً من الجزر المتحركة. إذا كانت جزءاً من الجزر فإن المعاول كانت ستدخل وتقبض بأسلاك إلى سفينة بخارية تتحرك بإتجاه الجريان ساحبة معها أوراق النباتات وكان سيتم إزاحة الأعشاب التي تقفل مجرى النيل قطعة قطعة مثل ما يسحب طبيب الأسنان الأضراس. وكانت جذور النباتات تزال من قبل مئات السكان المحليين الذين كانوا واقفين في النهر يحركون المجاديف والمعاول. واستغرقت عملية إزالة خمسة أميال من المستنقعات مدة ثلاثة أشهر وتطلبت خمس سفن بخارية وثمانمائة سجين نوبي تحفهم قبائل محاربة ويكتنفهم البعوض والملاريا. وقد كانت مهمة إزالة الأعشاب من النيل على مر الزمن مهمة ضخمة تحفها المخاطر. كان المسار الحقيقي للنهر يتغيير دائماً ومع ذلك فإن الأعشاب تتسبب في قفله وخلال تسعينيات القرن العشرين أثناء الحرب الأهلية الثانية في السودان فقد أصبحت المستنقعات مرة أخرى مستحيلة العبور لأشهر.

نحن نطير فوق مدن وقرى متهدمة ومخربة ذات لون أبيض ورمادي ولكنها بالمقارنة مع تلك المناطق القاسية الموجودة في الأتجاه الشمالي للنهر تبدو كلا شيء وهذه هي السمة المميزة للإقليم. فحول كل قرية وبلدة نجد غطاءاً عشبياً بمحاذاة النهر لا مثيل له.

فمن مدينة بور شمالاً بمسافة ٣٠٠ ميل فإن نبات البردي وأعشاب النيل تسيطر على منطقة المستنقعات، ونبات البردي هو نبتة النيل بامتياز. فقد قام المصريون بصناعة أول قارب وأول ورق من هذا النبات. ونجد على جدران المعابد قوارب البردي مصورة ومشابهة لتلك التي لا تزال تستخدم على النيل. وتوجد مزايا البردي مسجلة على قطع قديمة من البردي المحنط قرب الصحراء في الأُقصُر وفي

الفيوم. تنمو نباتات البودي بارتفاع ثمانية عشر قدماً في بعض المناطق مكونة غابة خضراء داكنة وتعكس النباتات في الأسفل ظلاً خفيفاً بسبب نقص الضوء. تصدر نباتات البردي حفيفا وهي تغمر نفسها بالمياه على حافة النهر.

تبدو أعشاب الفيل بجذوعها التي تشبه جذور الخيزران أكثر صلابة وأقل جمالاً من البردي ولها أوراق يغطيها ما يشبه الريش المتجه إلى أعلى ويوجد عشب آخر في كسائه الأخضر بالشعر ويسمى (أم صوف). ويوجد في أعلى هذه النباتات جميعها نبتة (أمباتشا)، وهي نبتة ليفية ذات لب ويبلغ ارتفاعها ٢٠قدماً ويبلغ سمكها ٦ بوصات ويتدلى منها حبل ضخم من الزهور الزرقاء. وبوجود أشواكها الصغيرة فليس من السهل استخدامها مثل البردي. ولكنها تشبهه في كونها مادة جيدة لصنع القوارب.

نحن ننقض على لهيب من أرصفة النفط فقد تم التنقيب عن النفط من قبل شركة شفرون في منطقة بحيرة السد في السبعينات. ولكن المشاكل المستمرة في الإقليم جعلت من الصعب أن يتم استدامة الإنتاج فيه.

يبدأ النيل بعد المستنقعات الغنية بالنفط مرة أخرى ببحيرة نو، وهي أول بحيرة بعد منطقة المستنقعات الكبيرة، وهي في الواقع بداية عهد في مسيرة حياة النيل. فهو يبدأ من الآن فصاعداً الجريان فوق منحدرات جبلية على طول مساره.

وهنا في جنوب السودان حوالي خط عرض ١٠ درجات شمالاً فإن النيل يستعيد قاعه الصلب مرة أخرى ويحافظ عليه إلى أن يصل إلى الدلتا في مصر. فليس هناك أي مستنقعات إضافية بعد الآن وهذا هو الإقليم الذي يلتقي فيه بحر الغزال مع بحر الجبل في الطرف الغربي لبحيرة نو. بالرغم من أن بحر الغزال هو رافد وبحر الجبل هو الامتداد الرئيسي للنيل، فإن بحر الغزال هو نهر ضخم في حد ذاته عابراً في مساره الأول من خلال المستنقعات وجالباً من المياه قدراً لا يقل عن النيل نفسه. رافد آخر هو بحر الزراف ، والذي يلوح من الطائرة مثل داء خبيث يلتهم الأرض ، هذه أبعد نقطة أستطاع أي من القدماء الوصول إليها على نهر النيل وهي النقطة التي عرفها رجال الأمبراطور " نيرو " وعرفها أيضاً على الأرجح يونانيون من عصور سبقت ذلك ، وقد كتب " سينيكا " عن " نيرو " وعن البعثتين اللتين أرسلهما على نهر النيل في القرن الأول الميلادي ذكر أنهم قالوا عند عودتهم : (وصلنا إلى مستنقعات واسعة لم يعرف نهايتها أحد لا من السكان أو من غيرهم ، والنباتات مشتبكة مع الماء بصورة لا يمكن أن يشقها أحد لا عبر الأقدام أو على المراكب لأن المستنقعات موحلة ومغلقة لا تقبل عبور أي مركبة إلا أن تكون صغيرة وعلى متنها شخص واحد) . هذا وصف دقيق لمستنقعات السد والمراكب المصنوعة من البردي هي نفسها الموصوفة هنا من غير جدال ، و من اللافت أن هذه البعثة الإستكشافية البطولية لم يكتب لمثلها أن يحدث لما يقرب من ألفي عام .

يدخل النيل الأن إلى الأرض الجافة وسوف لن يفارقها بعد ذلك ، لون الأرض أحمر مسامي وعندما تمر عليها مركبة فيمكنك أن ترى آثار إطاراتها واضحة على الأرض وعلى طول ضفتي النهر .

في النقطة التي يتجه فيها النيل أخيراً نحو الشمال مرة أخرى يلتقي السوباط مع نهر النيل وهو أول الأنهار الأثيوبية ويأتي محملاً بالطمي من جنوب غربي الهضبة . السوباط نهر قوي التيار ويوفر ١٤% من المياه التي يحملها النيل الأبيض إلى الخرطوم . في هذا القطاع فإن نهر النيل ليس عميقاً – ربما خمسة عشر قدماً وحتى أنه في بعض الأماكن يبلغ عمقه ستة أقدام فقط . تمتد الأرض على جانبي الضفتين وتحل أشجار السنط محل نباتات البردي . ليس هنالك أي منحدرات نهرية في هذا القطاع البالغ طوله ٧٥٠ ميلاً – من بحيرة نو إلى الخرطوم –وتقوم التموجات المنخفضة في كلا الجانبين بحماية الأراضي المتاخمة من الفيضانات والمستنقعات وتمسك بالجريان في حدود الضفتين الصلبتين . هناك أحد عشر نوعاً من أشجار السنط تنمو في السهول بمحاذاة هذا المقطع من النهر . وبصورة تقليدية فقد قام الشلك بصنع جميع الأشياء بدأً من المراكب إلى السواقي وحطب الوقود ومواد تجميل البشرة والصمغ من هذه الأشجار التي تقف مثل هياكل سوداء مقفرة في مجابهة شمس منتصف النهار التي كانت تسطع على السهول .

هذه هي النقطة التي تلتقي فيها أسيا الغازية مع أفريقيا المتقهقرة على طول النيل . تفسح أكواخ الدينكا والشلك مخروطية الشكل المجال لمنازل الشماليين العرب ذات الشكل المربع ، وتسير بمحاذاة النيل الآن الحمير والجمال ويغطي الناس هنا رؤوسهم وأجسادهم بشكل شبه كامل . ويصبح وجود فرس النهر أندر وأندر . في كوستي هناك الجسر الثالث على النيل منذ بدايته على مسافة ٢٠٠٠ ميل من هناك .

هذا هو المكان الذي تقضي فيه الطيور المهاجرة من الشمال فصل الشتاء . طيور السنونو وطيور المرعة النادرة وطيور اللقلق وطيور الصافر وطيور الخطاف وطيور التنقب وطيور الزقزاق . ومن أغرب الأمور أن طيور السنونو المصرية تسافر لمسافة قصيرة عبر النيل . والطيور التي تذهب بعيداً بإتجاه الجنوب هي تلك التي أتت من أقصى الشمال وينطبق هذا الكلام على طيور الكركي واللقلق التي تسافر أبعد من الطيور المحلية وكأنما كانت تلك الرحلات ضرورية لأسباب أخرى غير مجرد العيش ، كأنما كانت هذه الطيور – مثلها مثل أسلافنا – تسعى لسبر أغوار نهر النيل بقدر الإمكان .

نصل إلى الخرطوم ونلحظ الإمتداد الشاسع للمدينة . إذا كنا محظوظين ونطير أثناء فصل الصيف فسيمكننا أن نلقي نظرة على مولد نهر النيل الأحمر ، ذلك الإمتزاج القوي لنهري النيل الأبيض والنيل الأزرق ، يكون النيل الأزرق في ذلك الوقت من القوة بحيث يدفع بالنيل الأبيض الذي يكون حينها قد ودع شبابه يدفعه إلى الخلف بعكس إتجاه الجريان ويصب الطمي – البرتقالي والأحمر والوردي ويعتمد اللون على ظروف محددة – في النهر الذي يأخذ مجراه في الإتساع بينما ينساب نحو شلالات شمال السودان .

من الأعلى ، تبدو المنحدرات مثل نقاط من معجون الأسنان على أرضية رمادية ، ونتيجة لخداع بصري غريب يبدو لك النهر وكأنه قد أوقف وتم تجميده بينما تشاهد من نافذة طائرة صغيرة ، الإزعاج تحتك على الأرض يصم الآذان .

نعبر إهرامات مروي الغامضة ذات الجوانب المدرجة والتي هي موطن الفراعنة السود الذين سكنوا هنا من سنة ٨٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٢٣٠ بعد الميلاد . تبدو هذه الإهرامات من الأعلى مثل تقاطعات قطرية وعندما تميل الطائرة تحصل على منظر جانبي وتبدو لك بشكل ما مثل المنازل الخشبية الصغيرة تركت من لعبة إحتكار عتيقة الطراز .

يبلغ النيل بحيرة ناصر . واحدة من أكبر البحيرات الصناعية في العالم – طولها أكثر من ٢٥٠ ميل – ويستغرق الطيران فوقها بمروحية ذات دعامة مزدوجة مدة ساعة كاملة . كل ذلك ماء . وهو ذو لون أزرق يبعث على النوم ، يرافق ذلك اللون الأخضر للطحالب على الشاطئ . تصنع البحيرة قطعاً طويلة من الماء بمحاذاة ضفتيها ، تلك الوديان التي ملأتها . ومن المدهش بالنسبة لبحيرة عمرها أقل من خمسين عاماً وجود شواطئ رملية بدأت بالتكون على أطرافها .

نمر الآن فوق السدين الأثنين ولم نتمكن من رؤية بقايا آثار " فيليه " بسبب التمويه على رؤيتها وسط الصخور البنية . تبدو الفوائد الزراعية لنهر النيل الآن ظاهرة للعيان . حقول مخضرة حول أحزمة أشدة خضرة من أشجار النخيل المزروعة بكثافة . يبدو كل شيء محافظاً على نضارته وأن هنالك عناية به ثم فجأة ومن دون أي مقدمات تجد أمامك الصحراء برمالها الصفراء ،ولا يمكن لصورة نهر النيل بإعتباره نهراً واهباً للحياة أن تكون أكثر وضوحاً من نظرك إليه من على نافذة الطائرة من أعلى لتبدو لك جروف النهر المخصبة بالطمي وهي تحف به من الجانبين .

نطير فوق المعبد الكبير في الأقصر ونعبر السد الصغير أو البارجة في أسيوط . يتسع النهر ويضيق من دون سبب واضح فيكبر ثم يضمحل . في القاهرة نجد نوعاً ما من الإنفجار ، فالمدينة مترامية الأطراف لحد بعيد ، يتحول النهر إلى قزم ولكنه لا يزال ينبض بالحياة ، ولا يزال يضخ الماء مثل شريان رئيسي ، نعبر أول سد بني على النيل على الإطلاق – البارجة – على الدلتا ، التي ترقد على حافة فرعين رئيسيين . تمتد الدلتا من حولنا . وهي بمثابة الأصل لكل فروع الدلتا . وتشبه في شكلها الحرف اللاتيني D .

نصل أخيراً إلى البحر . ويظهر لنا خيط من زبد البحر رابضاً في مكانه ، مثل المنحدرات التي رأيناها مسبقاً ، نقاطاً ، وعلى الأحرى أناساً ، على الشاطئ . يبدو لون البحر مائلاً إلى الخضرة كأنما قد أنكر الطمي الذي كان ينهمر عليه ، مغذياً تجمعات الساردين التي لم يعد لها وجود الآن ، يتمدد النهر داخل البحر ، الذي هو مآله ُ ، ثم يختفي .

٣- نهر التغيير:

(الشخص الذي غضب الله عليه : يبيع السمن في وقت الحر والملح في فصل الخريف) مثل سوداني .

إذن فبوجودي هناك وقيامي بذلك . قمت بالطيران فوق النيل وإجراء مسح على سطحه ، فقد آن الأوان أن اغوص في الأعماق ليتكشف لنا ما هو ممكن . وكبداية ، فإن أكثر شيء مثير للإهتمام متعلق بالنيل هو على أعتقد : عمره الصغير وكيف تغير وأستمر في التغيير . فمن ناحيته فإن كل الإنهار قديمة والنيل أيضاً نهر قديم ولكنه من ناحية جيولوجية فهو صغير العمر . الوديان الأصلية القديمة لمجرى النيل عمرها ملايين السنين ، ورغماً عن ذلك فإن النيل في مجراه الحالي حديث على نحو غير متوقع " على حسب المقاييس الجيولوجية " : فقط ١٢٥٠٠ سنة . وهو نهر فوق كل ذلك قد مر بتحولات وتشكيلات كثيرة .

إذا كانت هناك فكرة واحدة أريد أن أضعها في بالي عندما أفكر في نهر النيل فهي فكرة التغيير والتي هي فكرة بالغة البساطة . النيل تغير ، ويغير الأشياء – عندما يحتك الناس بالنيل فهم يتغيرون – وذلك عندما يسيرون بمحاذاته ويستقرون على ضفافه ليخترعوا الري والكتابة ويكونوا مجتمعاً حضرياً أولياً ، أو مستخدمين النيل كمبرر للغزو أو اعتناق دين جديد أو لينهبوا ويسلبوا أو ليحكموا . النيل يغير ، أنه عامل محفز للتغيير . هل هذا مفهوم عام لدرجة أنه قد لا يكون ذا جدوى ؟ سوف نرى ذلك .

ما الذي يبقى ؟ بعد أن فاض النهر الأحمر ، ما الذي يبقى ؟ الأرض ، الأرض السوداء . الأرض التي إسودّت بفعل الطمي ، ذلك الطمي الثقيل الخصب الذي مكن مصر القديمة من الإنتعاش . في الماء سواء كان الطمي معلقاً أو متحركاً فهو يبدو أحمراً ، مثل الدم : مرة أخرى مثل الدم ، وعندما يجف ويتخثر ويطول بقاءه فإنه يتحول إلى اللون الأسود . هناك مجازفة دوماً في إستخدام مثل هذه الإستعارات إلى مدى بعيد أو لمدة طويلة ، ولكن يبدو أنها صحيحة وبالنسبة للنيل مع نهر بهذا الإتساع في الإطار والطول ، كان ذلك هو الحل الوحيد ، مع تلك الإستراتيجيات الواهنة ، سأتمكن من كتابة نسخة خاصة بي تحوي كلاماً عن هذا الطمي الخصب ، وتلك الجبال من البحوث ، والقصص ، والتاريخ والعلوم والأساطير والخيال كان ذلك كله يتزاحم علّي في غرفة مكتبي المطلة على النيل .

عندما جلست في غرفتي الصغيرة المضاءة جيداً في المبنى رقم ٣٢ شارع رقم ١٠٠ مباشرة فوق طلمبة الوقود في المعادي . تأكدت عندما رفعت نظري عن الكمبيوتر أن لدى إطلاله على نهر النيل إطلالة لا يعترضها شيء . أزلت الستائر لأنها كانت من مادة معتمة تحجب عني النظر . كان مربع النافذة الخالية أفضل وكان المنظر واضحاً أكثر عندما فتحت النافذة ذات الإطار المعدني ، بدا النهر وكأنه نموذج صغير ذو لون بني مخضر محصوراً في المسافة بين مبنيين . أحدهما كان مبنى مرتفعاً ، لأكثر من ٢٠ طابقاً ، وتم بناءه في السنوات القليلة الماضية . وكان الأخر مبنى شعرت أنه مخصص

لذوي الأمراض العقلية ، خصص لهم في ظل موجة التنمية العمرانية التي شهدتها مصر .كثيراً ما كنت أسمعهم وهم يصيحون ويستغيثون مرة في الأسبوع مثلاً . سألت زوجتي عن ذلك فأجابتني بهدوء (يعني ذلك أن أحدهم قد هرب ، قلت لها " أنت تقصدين أن من يصيح ليس هم المجانين ؟ " قالت : " لا ، أنهم الممرضون") .

أول مبنى حجب رؤيتي هو كما ذكرت مبنى جديد ، أصحابه من الأثرياء الجدد ، الذين هم أغنى منّى على ما أظن وما يدل على ذلك أنهم يسكنون في منازل أقرب إلى النيل منّي (لطالما كان السكن بالقرب من النيل أولوية في مصر ، لكن دخول رؤوس الأموال الكبيرة وأرباح قطاع العقارات قد زادت من هذا الحرص لنفس درجة الهستريا التي تجدها في لندن وباريس مع نهري التايمز والسين . ومن الغريب أن سكان نيويورك يبدو أنهم لا زالوا يفضلون السكن في " سنترال بارك " على السكن في " هدسون " . ربما أفسدت ذوقهم التجارة .

كيف يمكن أن تكتفي من زاوية من زوايا التغيير ، أو التحولات ، التطورات ، الثورات ، الطفرات والتعديلات وإعادة الميلاد ؟ زاوية واحدة : مجرى النهر كالكنز ، أحفر عميقاً بشكل كاف وستكشف عن طبقات متتالية من السكن والجيولوجيا والزراعة . ببساطة . أو تجاهل هذه الطبقات وكن ضد علم الآثار فبينما يتعامل الأكاديميون مع ما هو موجود ، الأدلة والبيانات ، فربما يكون نوع أخر من البحث عن جذور الأشياء يركز على ما هو غير موجود :عن الفراغ في فترة زمنية معينة في سجل الأحفوريات عن الغياب الصارخ لشيء ما ، عن الجهل بشيء ما ، القبائل والأشخاص المفقودين .

ربما كان المضي قدماً يقتضي النظر إلى الأخر ، ما هو عكس مفهوم النهر – الركود – النهر يفيض ويهب الحياة وعندما يركد يصبح بحيرة أو قناة – شيء يحدده شكل ، أو إنخفاض ، أو كأنه خندق وسط سهول .كأنما قتلته تلك الأراضي وجعلت منه شيئاً تابعاً بدل أن كان شيئاً حياً . صحيح أن مياه القنوات تتسرب ويلزم أن تردم بالطين أو أي شيء أخر وإلا فتتسرب منها المياه .

قد يكون الماء الراكد مفيداً ولكن مدة صلاحيته قليلة إذا لم يتم الإنتباه إليه ومتابعته أو التدخل فإن الماء الراكد يبدأ بالتعفن وإيواء الأمراض ويصبح بالفعل خطراً على الإنسان ويمكن أن يكون قاتلاً عندما يتربى فيه البعوض والطفيليات .

ومع هذا ومع علمنا بذلك فإن أول ما يخطر ببالنا هو أن نجعل من النهر ماءاً راكداً ونحوله إلى بحيرة " مفيدة " . نحن نريد المزيد ونبغي الحصول على كل بيضة ذهبية وسوف نقتل لأجلها الإوزة .

يذكرني ذلك بقصيدة " بول كلان " المسماة (الموت) والتي يقول فيها (نحن نشرب لبن الفجر الأسود عند حلول الليل) نحن دوماً نريد أن نستبدل النهر الحي الأحمر باللبن الأسود . يبدو أن الحياة تضجرنا ، نحن نريد أن نعرف إلى أي حد يمكننا أن نمتص من الموت أو نتجرعه أو أي قدر منه يمكننا أن ننحيه بعيداً في زاوية مهملة .

كلمة الكحول ، أصلها عربي هو " كحل " ذلك المسحوق الأسود الذي يستخدم لتحديد خط العين والذي كان شيئاً محبباً لدى المصريين القدماء ثم أخذه عنهم العرب . تستلزم صناعة الكحل تقطير الأثمد ولذا أتت كلمة " كحل " أي عملية يتم فيها تقطير (من المفارقات العجيبة أن من يعارضون شرب المشروبات الروحية المقطرة هم من أكتشفوا العملية) .

مع كل ميزات مشروباتنا المفضلة فيمكن لها أن تكون سماً ، فالكحول في شكل ميثانول يمكن أن تسبب العمى والموت . وفي شكل إيثانول فهي ببساطة تجعلنا نسكر . ولكن الإيثانول النقي ليس مستساغاً ، ولذا فإن كل أشكال الكحول المفضلة تحتوى كميات متفاوتة من الميثانول ، الذي هو سم زعاف . إنه الموت الذي يهب الطعم اللذيذ .

نعود إلى الكحل الأسود . فالعين المزينة بالكحل كانت من أكثر الصور المميزة لمصر القديمة . وصورت في النقوش الهيروغليفية كـ (عين حورس) . لأجل أن تناسب إلهاً رأسه رأس صقر فقد كانت (عين حورس) تمثل عين طائر كاسر . العين تراقب وتحمي الفرعون في حياة الأخرة . رسمت (عين حورس) لنفس سبب الخرافة هذه في مقدمة السفن وهو ذلك التقليد الذي إمتد إلى الشرق المجاور كله . حتى يومنا هذا فسترى (عين حورس) في مقدمة مركب أو "فلوكة " تمخر عباب النيل . لم تكن العين في مصر القديمة ينظر إليها بإعتبارها عضواً خاملاً مهمته فقط رؤية وتسجيل الأشياء ، ولكن كأداة للفعل ، والعزم والغضب . العين التي تحرس من عين الحسد . ربما من خلال ما أراه فيجدر بي أن أفهم الإشارة وأخذ جذع شجرة لأطوف به النهر .

اللبن الأسود . عين السحر ، في أي مرحلة يقتلنا التغيير ؟ أو يصبح شكلاً من أشكال الموت ؟ في أي نقطة يمكن للتقاليد أن تعيق وتخنق وتصبح سبباً من أسباب الموت ؟ هذا كله واضح جداً في مصر حيث تناطح الحضارة الزمن ومرة أخرى ضد الذكرى . يسكن الناس في معابد داخل مدينة الموتى وهم يمسكون بهواتفهم الذكية .

الأرض السوداء مصر كما سماها الأقدمون – الأرض تبقى هي ذاتها – في ذات الدلتا التي كان الناس يزرعونها منذ القدم وحتى منتصف القرن العشرين بنفس الطريقة ذاتها قبل ٣ ألف سنة . حتى الآن هناك أوجه شبه بين ذلك وبين ما هو موجود في المجتمعات الفقيرة ، الأرض هي الأرض ، النهر هو يتغير .

التقاليد شيء سيء . هذه عقيدة واحدة . ولكن التقاليد يمكن أن تسمى طرق المحافظة للحياة . قد يستدعي التغيير أن نقتل ما نحتاجه ولكن لا نريده في الوقت الحاضر . لأنه قد إختفى من أنظارنا .

هناك شيء واحد أنا واثق منه . وهو تجريب الأشياء ، أن الإبحار عبر النهر من خلال غرفتي التي تبثه الكابينة ، وفيها رزم الكتب ومن غير ستائر ، مطلعً من خلالها على النيل في النهار والليل (منظر غروب الشمس بديع) ، توثيق الرحلة ، أو مسجل الكابتن إن صح التعبير ، وسيكون ذلك السجل حيوياً مثل أي سجل لرحلة حقيقية قمت بها ، كانت هناك رحلات كثيرة على النيل في الماضي

القريب ، بدءً من رحلات المغامرة إلى الرحلات المنقولة على التليفزيون أظهر بعض هذه الرحلات أن تغييرات طرأت على النيل ولم يظهر بعضها الأخر أي تغييرات . سعى بعضها للتأكيد على أن شيئاً لم يتغير ، وسعى بعضها للتأكيد على أن كل شيء قد تغير ، يتعلق الأمر كلهُ بما نظرت إليهِ وبما تعلق بهِ نظر العين المكحولة بالكحل الأسود .

بالتأكيد فإن النظر إلى حياة النيل عبر أطول فترة زمنية سيعيننا على تحديد أدوار إعادة الميلاد بشكل أفضل وأدوار الموت والتغيير والتقاليد. هذه هي الأسئلة الحقيقية ، أليس كذلك ؟

آمل ذلك ..وأنا أتجرع الجعة خمراً من نوع مصفى من ألطف ما أنتجهُ مصنع الأهرام للبيرة ، جالساً قرب نافذتي الصغيرة أرقب غروب الشمس في مربع الخلود الصغير الخاص بي .

النيل أبن الأخدود:

(هناك شيئان فقط تستحسنهما إستحساناً فطرياً : وهما الماء وأمك التي ولدتك) مثل سوداني .

كُذب المستكشف والعالم الألماني (ألفريد وقنير) وأستخف بهِ بسبب نظريته عن تباعد القارات والتي وضعها عام ١٩١٢م التي تنص على أن العالم قد إنفطر مثل جمجمة الطفل ومع ذلك فإن هذه الصدوع هي في الواقع مفيدة ، تفاعلت القارات مع الحمم البركانية الذائبة تحت البحر وأمتدت منزلقة فوق بعضها البعض . تم تجاهل الباحث (ألفريد وقنير) منذ وفاته المبكرة في قرين لاند عام ١٩٣٠م وحتى فترة الخمسينيات مما ينذر أولئك الذين يتقدمون بنظريات يبدو أنها صحيحة ولكن لا يمكن تفسيرها بسهولة .

لاحظ (ألفريد وقنير) منذ وقت مبكر ما لاحظه أي تلميذ في المدرسة : وهو أن قارة أميركيا الجنوبية يمكن النظر إليها على أنها تناسب شكل الزاوية القائمة التي يمثلها شكل غرب أفريقيا (في الخريطة) وفي الواقع فإن كتلة الأرض كلها تبدو وكأنها قد كانت يوماً ما قطعة واحدة . بحث وقنير عن أدلة لإثبات نظريته عن طريق إيجاد صخور وأحفوريات متطابقة في جانبي المحيط الأطلسي . وقد قام بإعطاء الدليل ولكنه لم يقدم آلية حدوث ذلك ولذا فقد واجهه العداء من جمعيات مرموقة مثل الجمعية الأمريكية للبترول . بحث عن العزاء في محنته بالقيام برحلات إستكشافية للقطب المتجمد الشمالي . في أخر رحلة له إلى قرين لاند فقد كانت الظروف المناخية بالغة القساوة لدرجة أنه أضطر لبتر أصابع قدم أحد أعضاء فريقه التي تجمدت من البرد مستخدماً مطواة صغيرة . أنخفضت درجة الحرارة إلى ٦٠ درجة تحت الصفر وبعدها فقد توفي نتيجة لذلك الباحث (وقنير) والذي كان قد شارف الخمسين من عمره وكان كثير التدخين وأمضى جزءاً كبيراً من عمره في الدراسة .

تسبب الإكتشاف الذي تم في الستينيات بخصوص أن قاع البحر قد تمدد فعلاً كما توقع (وقنير) بسبب الحمم البركانية الذائبة وإنتفاخها فوق التكوينات الصخرية في إعادة الإحترام لنظرية طالما سخر الناس منها وهجوها . أتفق العلماء أن سبب تحرك القارات هو تحرك صفائح التكوينات الصخرية من تحتها بسبب السوائل الحارة التي تدور بمركز الأرض . تماماً مثلما يدور الأرز في مقلاة فيها ماء يغلي ، بالتالي فإن سطح الأرض كان دائماً في حركة مستمرة بسبب تحرك الحمم البركانية الذائبة في أسفل الأرض .

أعتقد أنه من المفيد أن نلحظ النظرية الحالية عن مولد نهر النيل – في وادي نشأ من تحولات في التكوينات الصخرية – كانت حتى الستينيات تعتبر كلاماً فارغاً أو خاوي المضمون . أنا أعتقد أننا كلنا ميالون خاصة غير العلماء إلى التقليل من قدر الطبيعة المتحولة " للحقيقة " العلمية . بالتعريف فإن مثل هذه الحقائق يمكن أن تكون فقط محاولات لتحسس الطريق نحو تفسيرات أفضل وأفضل . أعتقد أننا بحاجة إلى الإحتفاظ بقدر ضئيل من إحتمال اللامعقول ، كلما أصبحت نظرية ما راسخة وأساسية . في غضون عدة سنوات يمكن أن تصبح هي أيضاً كلاماً فارغاً .

لكن في الوقت الحالي فلدينا (وقنير) وصفائحه المتحركة . النيل الأحمر والبحر الأحمر هما أبنان لوادي الأخدود ، التوأمان التكوينيان . يبدأ وادي الأخدود في شرق أفريقيا ويشق طريقه لإتجاه الشمال نحو تلك المنطقة المتصدعة – فلسطين وبلاد الشام . البحر الأحمر هو نتيجة أولى . وادي النيل هو النتيجة الأخرى .

هذا النهر المتكون ، النيل الأحمر ، ولد جراء التحولات العنيفة للتكوينات الصخرية والتغيرات المناخية التي كانت من العظم بأنها تجعل من قلقنا الحالي بخصوص التغيرات المناخية تبدو وكأنها جدل عادي حول درجة ضبط حرارة المكيف . نحن نتحدث عن دهور من الزمن إختفت فيها كل البحار بالتبادل مع حدوث فيضانات بطريقة مشابهة كلياً ليس لما ذكر في العلوم المثبتة بل لما ذكر في سجل الأحداث التي ذكرها الإنجيل .

لكن قبل وقت طويل من كتابة الإنجيل ، قبل سبعة ملايين سنة ، فقد تبخر البحر الأبيض المتوسط وأصبح فقط مجرد بركة . في تلك الأيام كان (جبل طارق) ملتصقاً مع المغرب وكانت درجة الحرارة في العالم عالية وكأنها مقلاة لدرجة أن أغلب الماء كان يغلي ويتبخر تاركاً ورائه حفراً عميقة وبركاً مثل التي سبق ذكرها . بسبب المخاوف الحالية جراء إرتفاع درجة حرارة الكوكب (الإحتباس الحراري) فمن السهل أن نتصور أن الأرض لم تكن يوماً في درجة حرارة كهذه ، ولكن ، فيما بين العصور الجليدية فإن درجة الحرارة إرتفعت إلى ١٥ أو ٢٠ درجة فوق المعدل الحالي . تخيل أنك خارج البيت ودرجة الحرارة مقدارها ٦٠ درجة ؟ من الطبيعي أن درجات الحرارة العالية هذه نتج عنها نسب تبخر عالية . أضف إلى تلك التحولات في الصخور التكوينية في الجسور الأرضية الجديدة وستفهم سبب الطبيعة المتقلبة للبحر الأبيض المتوسط .

مع وجود مياه قليلة في البحر الأبيض المتوسط فقد كان مستوى سطح البحر أقل مما هو عليه الأن كثيراً جداً يعني ذلك أن أي نهر يصب في البحر المتوسط أمامه مسافة أطول لتسقط مياهه . أدى ذلك إلى تسريع جريان الأنهار وكان ذلك يعني أنها تحفر أخاديد عميقة كلما أقتربت من الساحل . النيل في مصر – كان النهر محصوراً بالكامل في مصر حينها ، تغذيه أمطار السهول المعشبة (لم تكن إلى ذلك الوقت قد أصبحت صحراء) – حفر أخدوداً بعمق أميال . تجلس القاهرة فوق ذاك الأخدود الذي غمرته الأن كميات الطمي التي جلبها النيل . إذا أمكننا الرجوع سبعة ملايين سنة وشيء من ذاك القبيل فسيمكننا أن نرى شيئاً مثل الأخدود العظيم يمتد داخل بحر قد جفت مياهه . في القاهرة يكون عمق الشق ميلاً ويبلغ عمقه في الدلتا إلى ميلين ونصف . تلك مسافة يمكنك وأنت تقطعها نازلاً من القمة أن تدخن سيجارة أو سيجارتين .

كانت الحياة على ضفاف النيل قبل سبعة ملايين سنة تضم تماسيح ضخمة يبلغ طولها ٦٠ قدماً وتضم أيضاً أسلافاً منقرضة للأسود ذات أنياب ضخمة وشهية أكبر وتضم سلاحف وربما بعض الثدييات من الفصائل العليا .

إستعاد البحر الأبيض المتوسط في النهاية مياهه ، لحسن حظ الناس الذين أتوا فيما بعد لقضاء العطلات على سواحله . تم غمر الجسر الأرضي من (جبل طارق) إلى المغرب والذي شق البحر الأبيض المتوسط وأدى إلى حدوث التبخر بمياه البحر الأطلسي الذي أرتفع منسوبه . كان ذلك قبل خمسة ملايين سنة . أستمرت مناسيب البحر في الإزدياد بشكل مضطرد وتم إغراق نهر الأخدود لمسافة مئات الأميال في إتجاه الجريان .أصبح نهر النيل كله خليجاً ضخماً يبلغ عرضه ٧ أميال في أسوان و٥٢٥ ميل إتجاه الجريان .

ثم أصبح جافاً مرة أخرى جافاً جداً جداً . أعلم أن ذلك يبدو كأنك تقرأ من الإنجيل ولكن هذا هو ما حدث بالفعل طبقاً لأفضل المصادر العلمية المتاحة لنا . قبل ٢ مليون سنة جف كل نهر النيل وأصبح وادياً يعلوه الغبار ، أصبحت كل الأرض صحراء ، كلها رمال .

ثم قبل ٨٠٠ آلف سنة بدأت الأرض بالتحرك أو لنقل أن سطحها بدأ في التحول بطرق مختلفة ، أرتفعت الهضبة الأثيوبية تدريجياً وأنحرفت بإتجاه النيل مبتعدة عن البحر الأحمر .وبالتالي وبدلاً من أن تجري المياه في إتجاه البحر الأحمر فقد بدأ تصريفها في إتجاه النيل . تذكر أنه إلى هذه النقطة فقد كان النيل محصوراً في مصر ، لكن الآن ، مع وجود الإنحراف في الهضبة الأثيوبية ووجود أنهار جديدة منها تغذي النيل ، فلم يعد النيل وادياً جافاً وأمتد خلفاً بإتجاه أفريقيا كمصرف مائي حي .

في تلك الأثناء ، في أفريقيا الوسطى إنهمرت المياه من المنطقة التي سيصبح أسمها حوض الكنغو وحوض النيل في السودان لتكوين مستنقعات السد التي هي أكبر مستنقعات العالم . كانت كل الأنهار تتجه إلى الداخل ولم يكن لها طريق خروج ، لا يوجد مخرج أو مسار يوصل إلى البحر لذا غطت الأنهار بالمياه منطقة تزيد مساحتها عن مساحة فرنسا مكونة أكبر مستنقعات العالم . (لتوضيح ذلك) تخيل أنك ترتدي حذاء الوحل وتخوض في الأوحال من مدينة (باولوقن) إلى مدينة (مارسيليا) مع وجود مياه موحلة فيما بين ذلك . كانت تلك هي منطقة السد .

تأتي كلمة السد من الكلمة العربية (سد)والتي كانت فعلاً سداً إلى حلول أوج عصر الذوبان الجليدي حينما بدأ الجليد في الإنحسار قبل ما يقرب من ١٥ ألف سنة . في هذا العصر الجليدي الأخير كانت الجبال في أفريقيا الوسطى مثل جبال (روينزوري) مغطاة بالجليد طوال العام وكانت تبدو للإنسان القديم مثل شيء غريب يلمع مع شمس الصباح . ربما كان أسمها الأسطوري (جبال القمر) مأخوذاً من قصة قديمة بقيت منذ ذلك العهد .

تكونت انهار جديدة لتأخذ الجليد الذائب بعيداً . كانت الأنهار الجبلية التي تغذيها مياه الجليد الذائب مثل سد عملاق يضخ في مستنقعات السد ويربطها بأنهار الهضبة الأثيوبية المرتبطة بالنيل .

في هذه النقطة بدأ النيل في بحيرة تنجانيقا وأمتد عبر بحيرة ألبرت وأنتهى به المطاف في البحر عند تلك البلاد التي سيصبح أسمها مصر . قامت أنشطة تكوينية صخرية إضافية بقفل بحيرة تنجانيقا تاركة بداية النيل في المنطقة الواقعة بين بحيرة إدوارد وبحيرة ألبرت .

كان هذا هو النيل مثلما نعرفه الآن . أخيراً أرتفعت بحيرة فيكتوريا إلى أعلى قبل ما يقرب من ١٢٥٠٠ سنة لتغمر الكتل الصخرية الواقعة في حدودها الشمالية . فاضت البحيرة ووصلت إلى نقطة تصرف النيل عند بحيرة ألبرت لتكون النيل المعاصر . كانت هذه الفترة ممطرة بشكل كبير بحيث قامت سيول عارمة بإزاحة الكثبان الرملية من مجرى النيل صانعة نهراً ضخماً وعريضاً وخطراً ، نهراً كان الأقدمون يهابونه ويتجنبونه .

هذه المرحلة الممطرة من عام ١٢٥٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد سكن فيها الناس في الصحراء وهم كانوا يفضلونها على السكن بجانب النهر (كانت الصحراء لا تزال مضيافة تشبه السافنا حتى عام ٢٤٥٠ قبل الميلاد أثناء عصر مصر القديمة) . بقايا الصحراء بمسافة مئات الأميال من النيل تشير إلى أبار وبحيرات تغذيها الأمطار في مناطق هي الآن يابسة كلياً ليس فيها غير الرمال والصخور .

هجر سكان الصحراء السهول عندما جفت،وجدوا أن ذلك النهر الهائج أصبح الآن أكثر هدوءاً ويمكن التحكم فيه بشكل أكبر . أحضروا معم تماثيلهم الصحراوية : الأهرامات التي تحاكي كثبان النجوم وتمثال أبو الهول الذي يبدو مثل شكل أسد من الرمل . وجدوا أنهم يمكنهم التحكم بالفيضان السنوي للنهر ، وأكتشفوا طرق الري التي لا تزال تستخدم إلى اليوم . نمت الحضارة وتكونت أول دولة لأمة في العالم على ضفاف النهر . بدأ ترويض النيل الأحمر .

أتت القصص مع الإستقرار بجانب النيل وأتت معها الأساطير عن أصله ، والقصص عن منبعه التي كان لها وجه من الصحة حتى الآن . دخلت القصص تلك في الحكايات التقليدية في أفريقيا ومصر وحتى اليونان . بما أن تلك القصص تم تداولها شفاهة ثم تم تدوينها في نصوص فقد أصبح النيل أول نهر يذكر في الأدب القديم .

٥. الخروج من جنة عدن محملين بالهدايا :-

(أصبحت حاملاً وهي تضحك ، ولدت وهي تبكي) مثل أثيوبي .

إذن فإن لدينا نهراً ، ولكن ماذا عن الناس الذي سكنوا فيهِ ؟ على بعد ستة أميال من وادي النيل سائراً فوق تلال الصحراء المصرية ، رافقتُ مسئولين تنفيذيين من شركة أوراكل للحاسوب في أثناء مران عملي لتكوين فريق عمل الشركة . كانت مهمتي أن أميط اللثام عن أسرار الصحراء ، لكن من عثرت على فأس يدوية كانت هي رئيسة قسم المبيعات بالشركة ، لم تدرك أهميتها . كانت تلك الفأس متروكة هناك ربما قبل ألفي عام ، تركها أحد السكان القدماء الذين سكنوا على ضفاف وادي النيل .

كانت فأس يدوية تمثل تقنية متقدمة بالنسبة لزمن ألفي عام قبل الميلاد بمثل درجة قاعدة بيانات شركة أوراكل في القرن الحادي والعشرين . لم يترك سكان النيل القدماء خلفهم لا عظام ولا مساكن فقد دمرت الصحراء كل ذلك . وكل ما تبقى لدينا هو آلاتهم فقط . وهذه الأدوات توجد في أماكن متفرقة في الصحراء ، الشيء الذي يثبت أن سخاء نهر النيل قد أمتد ليشمل أراضي هي الآن صحراء جافة . بينما

أوضحت ذلك ، رأت المديرة التنفيذية حماسي وأعطتني الفأس اليدوية . كانت تلك هدية قيمة لا يمكن رفضها . قالت لي (بجانب ذلك فالفأس ثقيلة جداً بالنسبة لمتاعي اليدوي) .

نقرأ من كتاب جينيس : وخرج نهر من جنة عدن ليروي الحدائق وإنقسم من هنالك إلى أربعة أفرع . هل كان ذلك النهر هو النيل الشريان الرئيسي للجنس البشري ؟ لقد سكن البشر وإنتشروا في أعلى النيل وفي أدناهُ وتطورت حياتهم منذ أول تكوين نهر النيل .

كما رأينا فإن نهر النيل في تكوينه الحالي هو نهر حديث بالنسبة لبقية الأنهار . مجرى سابق لنهر النيل كان يصب في بحر (Tethys) والذي سمي الآن بالبحر الأبيض المتوسط وجد قبل سبعة ملايين سنة . ولكن لم يكن ممكناً لنهر النيل أن يمتد بإتجاه الخلف خارج مصر قبل أن يحدث إنحراف الهضبة الأثيوبية عن البحر الأحمر . كان ذلك قبل حوالي ثمانمائة ألف عام .

وفر هذا الإتصال النهري فرصة لمجموعة (Homo sapiens) أن يخرج من عزلتهِ خرجوا ليسيطروا على العالم ويمتد بقائهم أكثر من أي مجموعة أخرى فقد كانوا موجودين قبل خمسين ألف عام بعد إنقراض مجموعات (Homo Erectus) وسيطرتهم على مجموعات (Homo meanderthalensis) خلال التهجين أو مزج السلالات . مع ذلك فقد ظلت مجموعة (Homo sapiens) منقطعة في الهضبة الأثيوبية . ربما كانوا من دون النهر سيمكثون في جنة عدن الخاصة بهم ربما يطالهم الإنقراض مثل المجموعات البشرية الأخرى . كان وادي النيل طريق الخروج بالنسبة إليهم .

كان لمجموعة (Homo sapiens) ميزة تميزهم عن أسلافهم المذكورين وهي كونهم كانوا يقدمون الهدايا. إكتشف الإنسان الأول كيفية إستخدام النار لأغراضه الخاصة منذ ما يقرب من مليون عام،فيوجد من ضمن الآثار طين مطبوخ بالنار كدليل على سيطرتهم على استخدام النار منذ ذلك الزمن البعيد حتى سابقاً فنحن نرى إستخدام الآلات الذي تطور إلى إستخدام الفأس اليدوية ، الآلة الموجودة في كل مكان والتي بالكاد تغيرت في شكلها طوال مدة خمسمائة ألف عام . شكلها يشبه شكل دمعة ضخمة منحوتة من الحجر ، كانت الفأس أداة مثالية لإستخراج نخاع العظم من العظام الطويلة للفرائس الضخمة مثل الظباء والجاموس ووحيد القرن والزراف . نخاع العظم كان طعاماً أساسياً بسبب غناه بالدهون التي مكنت من هضم البروتينات الموجودة في لحوم الصيد. يمكن للمرء أن يموت من سوء التغذية في حال عدم وجود الدهون بغض النظر عن كمية البروتين الموجودة كما ظهر جلياً من خلال قصة الباحث (Chris MaCandless) الذي توفي في براري ألاسكا رغم صيده الكثير من الطرائد الهزيلة ،لم يكن لديه فأس يدوية يستخرج بها نخاع العظم وتوفي على بعد عشرين ميلاً فقط من الشارع الرئيسي. إذن فحتى قبل خمسمائة ألف عام فقد توصل الإنسان الأول إلى هذه الحقيقة . بدأ في إقامة طقوس الجنائز مرتباً الطريقة التي يوضع بها جسد الإنسان بعد موتهِ حتى أن هناك فناً بدائياً وسط مجموعات meanderthalensis. لكن مجموعة (Homo sapiens) كانوا وحدهم من يدفنون موتاهم ومعهم

بضائع تجارية مستجلبة من بعيد ، كانوا يدفنوهم في مناطق بعيده جداً عن مواقع سكنهم . أتت المدافن في Pyrenees بمنحوتات حجرية من أوروبا الوسطى . لدى الناس في شمال أوروبا خرز من البحر الأبيض المتوسط . هؤلاء هم من إنحدروا من نسل (Homo sapiens) وإحتشدوا في النيل ليخرجوا خارج أفريقيا متبادلين بضائعهم في أثناء ترحالهم .

نحن نفترض أنهم كانوا يتاجرون ، ولكن بالنظر إلى مجموعات بشرية معاصرة مقاربة لهم ، مجموعات الصيادين فسنجد أنهُ من الأرجح أنهم كانوا يوزعون هذه الأشياء كهدايا . رجال قبائل (كونق) وهي مجموعة بعيدة تنتمي إلى ما يسمى (سان بوش مين) في كالهاري هم ممن يوزعون الهدايا وليسوا من التجار . أيضاً فليس لهم زعماء وكما ذكر أحدهم (نحن لدينا رؤساء وكل إنسان رئيس على نفسهِ) . قيل ذلك كنكته لعالم السكان (ريتشرد لي) الذي درس طريقة حياتهم بالغة الفعالية .

إن التجارة مرتبطة في تفكيرنا بإعتبارها منحى إنسانياً أساسياً لدرجة أننا نفترض أن توزيع الهدايا سلوك غير مألوف أو ساذج ، ومع هذا فإن مجموعات الصيادين مثل مجموعات قبائل (كونق) ومجموعات (Homo sapiens) القديمة لم يكن لها حوجة للتجارة ولا أي باعث لهم لممارستها بسبب عيشهم بنفس الطريقة في مجموعات متكونة من حوالي ثلاثين فرداً وهو العدد المثالي لوحدة الصيد . رغماً عن أن ما يسمى برقم (دومبار) هو ناتج عن مضاعفة العدد المثالي للمجتمع الإنساني (١٥٠ شخص) ، هذه بنية نظرية مأخوذة من إستقراء دراسة طرق حياة الثديات . يعكس العدد الأقل (٣٠ شخص) بشكل أفضل متطلبات إطعام مجموعة لا تميل إلى الزراعة . كان الإنسان الأول من هذه المجموعات يحمل معه ما يزن خمسةً وعشرون رطلاً من بضائع العالم في أثناء تجوالهِ الذي كان يقوم بهِ بشكل دوري لإيجاد طرائد جديدة .يمكن أن نفترض أن نهراً عظيماً يعج بالطرائد التي تعيش من خيرهِ يمكن أن يكون قد مثل نقطة جذب طبيعية جذبت هؤلاء الصيادين بإتجاه الشمال . لم يكونوا بحاجة إلى التجارة،فحزمتهم ذات الخمس وعشرين رطلاً كانت تحوي كل ما يحتاجونهُ ولكنهم بالتأكيد قد قاموا بتوزيع بضائع على وجه الهبة . أثناء إنتقالك فأنت تود أن يكون لك حزمة خفيفة بقدر الإمكان ، فليس من جدوى للمتاع الزائد .

تلد نساء (كونق) مرة واحدة تقريباً كل أربعة سنوات . هن يرضعن صغارهن كل تلك المدة الطويلة كإجراء وقائي ضروري لأنهُ من الصعب عليهن التحرك مع حمل طفلين في وقت واحد .لكنهُ أيضاً حل بيئي . لم يتمكن الإنسان من تحويل المرأة إلى آلة إنجاب وتربية إلا بعد إكتشاف الزراعة وهو وضع النساء الذي طالما أعتبر وضعاً طبيعياً . لدى نساء الصيادين على النقيض من نساء الرحل ونساء الرحل المزارعين قدر كبير من المساواة مع الرجال . وليس هذا مجرد رومانسية ، فهو ينبع من أهمية دورهن في جمع الطعام وتحمل عبء التحرك .

لا يمارس (الكونق)التجارة لأن كل ما يحملونهُ هو فقط أدوات بسيطة وربما آلة موسيقية . تعني ضرورة التجوال أنهُ لم تتكون عندهم المطامع التي هي جزء من حياة الإستقرار .هل من الممكن إذن أنهُ

في بداية خروج الإنسان الأول من عدن أن نقول أنه ُ قد هبط من النعيم ؟ يقوم (الكونق) بحل خلافاتهم من خلال الحوار ، وليس من خلال الحرب مثلما يفعل نظرائهم في (بورنيو) وكما يفعل من تبقى من مجموعات (Homo sapiens) المبعثرة والذين إلتزموا بالخطة الأصلية ولم يغرهم بريق المحصولات وتربية الحيوانات . يبدو لي أن عدم وجود قائد فكرة يحسن أن نعبر عنها بقولنا لا يوجد أتباع . الأتباع هم من يسببون المشكلات ، وقد حل الإنسان الأول هذه المشكلة قبل أن يبحر في هذا النهر خارجاً من جنة عدن . التفاصيل هي أيضاً صحيحة . ينقسم النيل الآن إلى فرعين رئيسين في الدلتا المصرية . قبل ألف عام كان هنالك ثلاثة فروع . قبل التاريخ كان هناك أربعة أفرع كما هو مذكور في كتاب جينيس .

من المغري أن نحاول إعادة الزمن إلى الوراء . لكن ملخص قصة الهبوط ، أول قصة للنيل إذا شئت ، يتمحور حول إستحالة حدوث ذلك . أُخرج آدم وحواء من الجنة ولا يمكنهم أبداً أن يعودا إليها . غادر الإنسان لأول عدن ووجد نهراً ساقه ُ شمالاً بإتجاه بقية العالم . لكن هذا النهر سيشجع لاحقاً قيام الزراعة وستستدعي كثرة الناس ممارسة التجارة . التغيرات تحدث لكن (Homo sapiens) قام بقهر (Homo meanderthalensis) و (Homo Erectus) و (Heidelbergensis)حتى قبل أن يبدأ بالتجارة .

من الطبيعي أن هنالك جدلاً كبيراً حول الميزات التي جعلت مجموعات (Homo sapiens) هي الرابحة . في الواقع فإن توزيع الهدايا أمر متقدم أكثر من التجارة .

يمكن إعتبار أن حيوانات الشمبانزي تتاجر طالما أنها تكتسب ميزات من خلال تبادل البضائع والخدمات . يستدعي وتزيع الهدايا المقدرة على التعاطف وتخيل ما قد يحتاجه ُ الآخرون . وهو أيضاً بداية نكران الذات . من المؤكد أن أول مرحلة من كوننا نتصف بالإنسانية هي حينما ندرك أن إرتباطنا بالآخرين يعني ما هو أكثر من الحياة الأنانية للفرد الواحد ، والتي هي حالة أي حيوان .

لم نعد الآن نعيش في مجموعات مكونه من ثلاثين فرداً ولم نعد نصيد ونتجمع لأجل حياتنا أو ننجب أطفلاً كل أربعة سنوات أو نسير مسافات طويلة لنجد مصادر جديدة للتوت والفول . نحن الآن متحضرون ، بسبب النيل ، مع هذا فإن واحدة من أعلى القيم السامية هي تلك التي تبقى (الكرم) ، إعطاء الهدايا . كتب المؤرخ اليوناني القديم (هيردوت) مقولة مشهورة وهي أن (مصر هي هبة النيل) . ربما بالرغم من الإغراء الذي يقدمه ُ لنا نهر النيل ، طريق الخروج من جنة عدن ، فنحن نحتفظ بقدرتنا على العطاء .

٦. آلهة النهر :-

(لأن قرد البابون لا يمكنه أن يرى أنه أصلع فهو يضحك على عيوب الأخرين) مثل سوداني .

كنت في المنبع الآخر للنيل الأبيض : في جنجا عند مخرج النيل من بحيرة فيكتوريا . هذه هي النقطة التي نثر فيها رماد رفات المهاتما غاندي (وكذلك في عدة أنهار هندية أخرى وفي مزار في لوس أنجلوس) . هذا هو سحر المنبع – جنجا هي البداية لنهر النيل على حسب ما هو مذكور في دليل

السفر (شأن نهر كاجيرا شأن معقد بالنسبة لمثل هذه المراجع السريعة) . قام المهاتما غاندي بالمساعدة في ترسيخ ونشر فكرة أن جنجا هي منبع النيل – الشهرة تساعد الشهرة . في جنجا هناك معبد بوذي ومسجد وعدد من الكنائس تعطي كل ديانة نصوصاً توضح البدايات القصوى لنهر النيل ، والدعوة ربما انسجمت مع المصادر الأخرى التي اكتسبت مع مرور الوقت ميزات روحية . أو على الأقل المقدرة على خلب الألباب .

ولكنني هنا لأجل أن أعبد الطبيعة بدلاً من تقصي الأديان . كنت فقط أبحر فوق النهر وهو نشاط ممتع يمكنك أن تقوم به فوق مياه أي نهر وهنا في شلالات (بوجاقالي) توجد أفضل أماكن يمكن للمرء أن يقوم فيها بالإبحار (وكذلك القفز وركوب الدراجات ... إلخ) .

يصبح الأمر الآن أكثر تعقيداً – كل هذه الشلالات والسدود ، أعيدت تسمية بعضها عندما أستلمت السلطة أنظمت مختلفة . خلاصة ذلك هو أن نهر النيل ينهمر بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا على كتل صخرية . سميت هذه بشلالات (ريبون) على إسم اللورد ريبون الحارس الشخصى للمستكشف (هانينق سبيك) الذي هو أول أوروبي يشاهد هذا المنظر . توجد شلالات أخرى بعد شلالات (ريبون) وهي شلالات (أوين) وعلى بعد ٤ أميال أخرى نجد شلالات أخرى هي شلالات (بوجاقالي) . في الواقع فإن هذه تشبه كونها منحدرات أكثر من كونها شلالات لأنها لا تعطيك نفس دلالة الكلمة التي تعطيك إياها شلالات (نياجرا) . عند شلالات (أوين) قاموا ببناء سد في الخمسينيات أغرق شلالات (ريبون) . كان هناك نصب تذكاري يذكر إكتشاف هذه الشلالات من قبل (سبيك) . أصبح ذلك النصب التذكاري الآن تحت الماء .

لعدة سنوات كانوا يخططون لبناء سد أخر سيغرق شلالات (بوجاقالي) التي تزحلقت فوقها بمركب مطاطي طوله ١٦ قدم . بينما تقرأ أنت هذا فسيكون الأوان قد فات عليك لتقوم بالشيء نفسه . من العجيب أن الخطة توقفت بينما بدأ البناء . بدأ العمل في السد أواخر عام ٢٠١١م.

من ناحية فبوجود كل الديانات في المدينة . بدا لي صحيحاً إنني كنت هنا لأعلن الحداد على ضياع شلالات (بوجاقالي) ، التي ستغمر بمياه السد الجديد ، على بعد حوالي ميلين من سد شلالات (أوين) . نعم فالنهر لم يبدأ جريانه فعلياً وقمنا نحن بإيقافه . مرتين .

إذا فهناك الكثير من الغمر بالمياه . الكثير من الأشياء التي تغرقها السدود . أغرق سد أسوان العالي مناطق النوبة مشرداً مائة ألف من الناس . عدد أقل من هذا سيتأثر بقيام سد بوجاقالي ، وبالطبع فإن يوغندا تحتاج إلى كهرباء لكن قد يسأل المرء لماذا يحتاجون في مكان كهذا فيه كثير من أشعة الشمس إلى المساومة بالنهر ؟ السدود مثلها مثل محطات الطاقة الكهربائية هي من الأعمال الكبيرة . يمكنك أن تحصل على عمولة كبيرة بسبب توقيع عقود إنشاء السدود . ليس لمحطات الطاقة الشمسية نفس ذلك العائد المربح الذي يجنيهِ الوزراء الحكوميون .

لشلالات (بوجاقالي) أهمية دينية بعيداً عن الإهتمام الذي يبديهِ الهندوس والبوذيون والحداثيون . السيد (جاجا نابمابا) هو رجل يبلغ من العمر الخامسة والتسعين وهو الوصي التاسع والثلاثون (يتذكر المرء بشكل غير مقصود قوم سكان الماء الذي كان جارجار بنكس واحداً منهم في فيلم حرب النجوم) . أعلن السيد (جاجا نابمابا) عن إستيائه من قيام السد الذي سيغرق مدافن أسلافهِ الثمانية والثلاثين وكذلك كل الأراضي التي يحصل منها على أعشابهِ العلاجية .

كنت أطلب أن ألتقي بالسيد (جاجا بوجاقالي) ولكن ذلك لم يكن ممكناً . كان مشغولاً أو خارج المنزل يبحث عن مكان جديد لإيجاد الأعشاب . أخبرني بعض الناس أن عمرهُ سبعة وتسعون عاماً ، وأخبرني آخرون أن عمرهُخمسة وتسعون وأخبرني أحدهم أن عمرهُ فوق الثمانين .في البداية فكرت أنهُ ينبغي علي أن أجد أمثلة على عبادة النهر كجزء أساسي من هذا الكتاب ، بإعتبار أن العبادة هي العلاقة الطبيعية بين البشر والنهر سواء كانت بسبب فيضانهِ الواهب للحياة أو بسبب الرياضة التي يمكن أن تمارسها على مياههِ فتجلب لك الإثارة وتنعش حياتك .لكنني بدأت أرى أنهُ بالرغم من أننا نعبد الأنهار إلا أن النهر من طبيعتهِ التغير . يتغير الماء بإستمرار ، المجرى يتغير أحياناً ويلقي الإنسان فيهِ بتغيرات أيضاً على سبيل القياس . وبعمر حياة الإنسان (والتي يتفق الجميع أنها مهدرة بالمقارنة مع عمر الصراصير والتماسيح) فقد نشأ النيل أو وجد إن صح التعبير وقد تغير بالتأكيد من غير أن ندرك ذلك . تكمن المهارة في أن نعرف متى نترك ومتى نتشبث . على نحو ما مثل ما في رياضة التزحلق على الماء . لم يكن (جاجا بوجاقالي) لوقت طويل يلحدد ما إذا كانت أرواح النهر ستبقى بعد بناء السد ، لكنهُ الآن يقول أنها ستبقى ، حتى ولو كان بيتها التقليدي مغمورا تحت الماء مع كل الأشياء الأخرى . في عام ١٩٩٤م كان (جاجا بوجاقالي) هو من قام بتنظيف الشلالات من الجثث التي جُرفت بعد حرب الإبادة في رواندا .

حتى الآن تبدو شلالات بوجاقالي رائعة .صوت خرير الماء فيها رائع أيضاً يشبهُ في صوتهِ زئيراً متصلاً ، إنهُ صوت ماء أبيض . الشلالات هي سلسلة من الدرجات الضخمة التي تزخر فوقها قوة النهر ، نتوءات ساطعة من الماء الأزرق تنتظر أن تنهمر وتتدفق لتصبح بذاك اللون الأبيض. يمكنك أن تتزحلق فوق رقعةرغماً عن أنهُ يمكن أن يكون خطراً . يمكنك أيضاً أن تسبح في الرقعة أيضاً إن كنت شجاعاً ومعك صفيحة ذات خمسة وعشرين لتراً . مقابل ثلاثة دولارات يمكن لأحد الشباب اليوغنديين أن يبحر فوق المنحدرات الرئيسية متشبثاً بعلبة بلاستيكية صفراء ، رغماً عن أن صبيا غرق في عام ٢٠١١١م إن كنت تنوي مشاهدة ذلك فيمكنك أن تشاهدهُ عبر (يوتيوب) .

بدأ العمل في سد بوجاقالي الجديد في أكتوبر من العام ٢٠١١م وكان آخر يوم رسمي للسماح بالتزحلق هو يوم ٢٧ فبراير ٢٠١٢م لذا فإن ماشهدتهُ سيكون الآن قد إنطوى . حسناً ، فالأميال الثلاثة الأولى ستكون قد إختفت ، لكن رفاق التزحلق كانوا حريصين على إقناعي بأنهم سوف يحولون عملياتهم بإتجاه أدنى النهر وأن المنحدرات هناك تكاد تكون بنفس الجودة .

أنا لست من المعجبين بالسدود ، لكن يمكنني أن أبقى معجباً بتلك الثقة التي توفرت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لبنائها . في الواقع فإن سد شلالات أوين الذي شيد عام ١٩٥٠م كان ينظر إليهِ من قبل علماء المياه البريطانيين كجزء من خطة طموحة للتحكم في النيل بكاملهِ من المنبع إلى البحر . في عام ٢٠٠٦م أكتشف أنهُ قبل خمسين عاماً من ذلك التاريخ فقد كانت هناك خطة أخرى بالغة السرية للبريطانيين لإستخدام سد شلالات أوين لمنعجريان نهر النيل لإجبار الرئيس المصري جمال عبد الناصر على تسليم قناة السويس التي كان قد إستولى عليها لتوهِ . لم يقوموا بذلك رغم أنهم أصروا على تدخلاتهم الطموحة لعدة سنوات أخرى . تضمنت تلك الخطة إنشاء قناة طولها مائتي ميل عبر مستنقعات السد الضخمة ، إنشاء سدود على النيل الأزرق وبعض الأشياء العظيمة الأخرى . لم يكتمل الكثير من ذلك حتى الآن ولا تزال محاولات السيطرة على النيل جاريه . لم تلقي الخطط البريطانية لترويض النهر بالاً لإستقلال السودان ويوغندا ومصر . لتعقيد الأمور أكثر فقد كان ذلك الإستقلال الإنفصاميتم الحصول عليهِ داخل الحدود وقررتهُ القوى الإستعمارية التي كان الناس هناك يبغضونها ، لا بد أن تأتي الحروب و الأفات تبعاً لذلك .

كان يمكن لشلالات ريبون القديمة في يوغندا ، نقطة خروج نهر النيل من بحيرة فيكتوريا التي إكتشفها جون هانينق سبيك في عام ١٨٦٢م وأكد على وجودها هنري مورتن عام ١٨٧٥م أن تكون مكاناً مغرياً بالنسبة إلي . لكن كان الأوان قد فات علي لرؤيتها . إستغرقني الوقت لمشاهدة السد .

سد شلالات أوين لهُ ذلك اللون الأصفر الباهت من الخرسانة والذي يبدو أن كل السدود في أفريقيا تتميز بهِ . فكرة السد أتت منذ عام ١٩٠٤م وشجعها ونستون تشرشل في كتابهِ عام ١٩٠٨م (رحلتي الأفريقية) فقد قال ﴿ للمرح أن نجعل النيل الخالد يبدأ رحلتهُ بالغوص عبر توربين) قلت لنفسي يا لها من كلمات بغيضة غير مبالية وأنا أنظر للمنظر المؤلم لجسم السد الذي أغرق ليس فقط النصب التذكاري المؤثر لـ(سبيك)ولكن أيضاً شلالات ريبون البالغ إرتفاعها إثني عشر قدماً إذ تراجع الماء الآن نحو بحيرة فيكتوريا . يساورني الشك حيال السدود الكبرى ، رغماً عن أن السدود الصغيرة تبدو مقبوله . يمكن للسمك أن يدور حول السدود الصغيرة من دون مشاكل . كتب إسبيك عن الأعداد الكبيرة من السمك التي تقفز فوق الشلالات لتهبط في بحيرة فيكتوريا . يا للحسره لا وجود لذلك الآن ، في سد شلالات أوين أعتبر أن إنشاء سياج أو قنطرة للأسماك تكلفة غير ضرورية . كانت الأسماك العابرة تشق طريقها فوق الشلالات لتحط في بحيرة فيكتوريا . الإنفجار الحاصل في أعداد الأسماك النيلية والأسماك النهرية في بحيرة فيكتوريا هو بالتأكيد ناتج عن إنشاء السدود على النهر . أن نرغب في التحكم بنهر عظيم كهذا هو أمر أحمق فيه الكثير من الغموض ، ومع ذلك فهو يظهر تحرراً من الخوف مثيراً للإعجاب . الخوف من ثأر الطبيعة والخوف من إنتقام الله عز وجل بسبب التدخل في كونهِ . يجب أن أعترف بأنني متحزب سياسياً . تسممت أفكاري لوقت طويل ضد تشرشل من قبل أحد أعمامي والذي

كان رجلاً عظيماً حارب مع روسيا البيضاء وقضى سنة بسجون موسكو (هو يحتقر تشرشل بسبب إعادتهِ لقوساك عام ١٩٤٥م ليقتل بأمر من إستالين) .

سنعود مرة أخرى للحديث عن تشرشل – حينما قاتل في حرب النهر في أمدرمان – ولكن في الوقت الحالي فأنا أنظر إلى المياه التي يلفظها السد وهي تبدو كوحش قد أحتجزبلؤمثم أطلق سراحهُ ولكنهُ متأثر ومرعوب بشكل كبير .السد الذي أكتمل بناءهُ في العام ١٩٥٤م دفعت مصر جزء من تكلفتهِ وذلك بسبب أن المياه التي يخزنها يمكن أن تطلق لتخفف من اثر إنخفاض مناسيب النيل الشتوية (حيل دون وقوع ذلك ببناء سد أسوان العالي) . حضرت ملكة إنجلترا إفتتاح سد شلالات أوين . أنا واثق من أنهُ لا يوجد سد في العصر الحديث يمكن أن يحظى بحضور الملكة والأمير شارلس وأنهم سيعارضون بناءهُ بدلاً من أن يحتفلوا بإنشائه . أخبرتنا التقارير أن فرس نهر شارد إقتحم الطوق الملكي ولكن لم يصب أحد بأذى .يبلغ عرض السد نصف ميل وإرتفاعهُ مائة قدم وتسبب في رفع بحيرة فيكتوريا لثلاثة أقدام ، كما هو مقدر .لا يمكنني تجاهل لونهُ ، كما لم يكن لون الصدأ أو لون التراب بل نوعاً مقيتا من الخرسانة .كم من الزمن يمكنهُ أن تصمد السدود إذا لم يعتنى بها ؟ رزت سداً في كندا ظهرت فيهِ ثقوب في سده الترابي ، كانت الثقوب من الكبر بحيث إطار سيارة كانت تعبر فوقهُ في الوقت الخطأ . قاموا بردم الثقوب وإنقاذ السيارة . لكن حتى متى سيمكنك أن تواصل لعبة المطاردة مع الماء ، مع الثقوب ، مع الصدأ ومع الزمن ؟

خلال هذه السنة سنشهد المزيد من السدود على النيل ، لكن التشابه اللفظي بين كلمتي السدود واللعنة ليس عن طريق الصدفة ، فاللعنات تحيط بالنيل من عدة أوجه ليس فقط للكونهِ واقعاً تحت أسر الصدأ والثقوب . تتداعى الأشياء في أفريقيا على نحو أسرع من بقية العالم . تغيب الرغبة في الحفاظ على الأشياء وإعادة بناءها ، ويقف شعب (كوفينتري ودريسون) كمثال على ذلك . ليس من المستغرب في شرق أفريقيا أن ترى وابوراً تركهُ صاحبهُ لأن الوقود نفذ منهُ . يمكنني أن أتفهم فجزء مني يريد التخلص من الدراجة عندما ينثقب إطارها . يمكن للأشياء أن تتحكم فيك إلى حد بعيد ، بعيد جداً ، تتحكم فيك السدود – ويوماً ما عندما ينفذ المال الذي أكتسب بسهولة سيتوقفون عن إعادة بناءها .

إذن فأنا أقف بين السدود إن صح التعبير بعد أن أمضيت ست ساعات عابراً فوق النهر بإتجاه الجريان ، وخمس وأربعين دقيقة في رحلة العودة ، عبر شاحنة تم تركيب مقاعدها بذكاء في مؤخرتها ، مثل سلحفاه مع مقعد فوق ظهرها . أتناول وجبة شابتي ملفوفاً في البيض المخفوق ، واحدة من أفضل الوجبات التي يمكنك تناولها في يوغندا إن كنت في المناطق التي يقيم فيها المسافرون حيث كنت أقيم في مخيم المستكشفين في جنجا .

قمت بالسباحة ، حسناً قمت بالخوض في الماء بحذر شديد في وقت الغداء . لستُ سباحاً شجاعاً . بل أنا ممن يقومون فقط برش الماء عليهم ، كنت ذات مرة قد سبحتُ لمسافة ميل – عندما كان عمري ثلاثة عشر عاماً – ولم آخذ الأمر على محمل الجد منذ ذلك الحين . أحب السباحة في

المياه الصافية بسبب الخداع البصري . لا أبالي البرد طالما أضع قبعتي على رأسي ، هذا هو سر إقتحام بعضهم للبحار المتجمدة وتفوقهم على المتسابقين الآخرين . ضع قبعتك على رأسك . لكن النيل هنا دافئ مثل ... حسناً هو ليس دافئاً . هو بارد نسبياً (رغم أن درجة الجو هي ٢٨ درجة) مثل حوض إستحمام ترك ليبرد ، فأصبح بارداً أكثر مما تتوقع .

كان المكان الذي توقفنا فيهِ هو خليج صغير ، طمأنني مرشدنا النهري – هنري –أنهُ آمن ، أخبرني أنهُ لم يعد يوجد في هذا الجزء من النهر فرس النهر أو تماسيح ، رغماً عن أن هنالك الكثير منها في أدنى النهر ، لم يشاركني أحد في خوض الماء مثل (يوحنا المعمدان) رغماً عن أن المتزحلقين الستة الشبان الذين كنت أتزحلق معهم كانوا مستعدين للقفز من فوق صخرة عاليه . تراجعت مذعوراً مثل الدجاجة متظاهراً بأنني أريد أن ألبس نظارة ، والتي أفترض أنهُ كان بإمكاني أن أنزعها لكن ذلك لم يحدث .

أيضاً كنت وحدي من يرتدي بنطالاً ، كان الآخرون يرتدون أردية ،ونوعاً ما كان الوقوف ببنطال أمراً سخيفاً ، كان لدى بعض المخاوف أيضاً من أمور مثل إنحباس الهواء . على أية حال فقد حزمت أمري وتوجهت إلى الماء مرتدياً "برموده" أنيقة تمنيت ألا تجذب نحوي تمساحاً أو فرس نهر أو بابون ، رغماً عن تطمينات هنري فإن واقع الحال بالنسبة لوجود فرس النهر يقول أن نادي القولف في مدينة جنجتسمح قواعدهُ للاعب بضربة حرة إذا وقعت الكرة فوق حافر فرس نهر .

لكن فرس النهر لم يكن هو مايقلق هنري فقد أخبرني بقولهِ (أنا حذر من البابون أكثر من أي مخلوق أخر ، صادفناهُ في النهر أكثر من التماسيح وفي الواقع أكثر من فرس النهر يمكن للبابون أن يكسر عظمة الفك لديك) .

قلت لهُ " لا شك أنها تحتاج إلى إثارة غضبها لتفعل ذلك " . أجابني ضاحكاً " تحب التماسيح أن تلتهم الناس الذين بهم جراح ، وبالنسبة لفرس النهر: حسناً يجب فقط أن تراقب المساحة بينك وبينها فلا تقترب منها كثيراً . لكن البابون حيوانٌ ذكى وماكر عندما يريد أن يكون كذلك "

سمعت شيئاً عن حيوانات الباباون في جنجا . نظمت مجموعة منها إحتجاجاً بجلوسهم على قارعة الطريق عندما صدم سائق إحدى إناثها الكبيرة ، أخبر شهود عيان أن السائق إنحرف فجأة بنية سيئة ليقتل إنثى البابون ، ولم يغادر القطيع الطريق حتى بعد أن عرض عليهم قصب السكر ، كانوا في حالة حداد على الأنثى الأولى للمجموعة ، بما أن الذكور تغادر المجموعة وتبقى الإناث فإن الأنثى الأولى هي مستودع لمعرفة المجموعة بالمنطقة . كانوا يحدون عليها لأنها خسارة كبيرة .

البابون حيوانات ذكية ، فهي تحزن على موتاها وهي بجانب فرس النهر والتمساح تمثل حيوان النيل بإمتياز . عرف المصريون القدماء البابون في شكل "ثوث" إله الحكمة والكتابة والإله الذي يجمع الالهه مع بعضها كان مصوراً ورأسهُ ررأس بابون .

رأيت في كهف صخري في داخل الصحراء المصرية دليلاً آخر على عبادة البابون ، فقد صورت أجساد حيوان البابون من دون رأس قبل ألفي عام من جفاف الصحراء الذي حصل قبل ٤٥٠٠ عام . كان النقش مثل صورة توت في المرآة . ونحن نعلم أن الناس الذين مثلوا نواة الإستقرار والذين تعود أصولهم إلى مايعرف بقدماء المصريون قد أتوا من نفس هذه الصحراء التي جفت قبل حوالي ٥٠٠٠ عام وأغرب من ذلك فقد كنت قد إكتشفت ان ذات رسومات حيوانات البابون من غير رأس يمكن أن نجدها فى بوتسوانا.

أن مرد الأمر إلى قسم من (هومو سابينس) هو (هومورودولفنس)قد قادتهُ حيوانات البابون إلى الإنقراض بسبب التنافس مع تلك الثديات النيلية المقيمة على النهر قبل مايزيد عن مليون عام . ربما كان الأمر أشبه بالكر والفر بين البابون و(هومو سابينس) .

هنالك سبب مقنع للإعتقادات بأن كل مخاوفنا غير المبررة هي مخاوف موروثة نعاني منها بسبب تجسيد سابق ، كأنواع من الإرتقاء، نحن نجرد المخاوف من قوتها عندما نلاحظها ونراقبها . عندما نرسم صوراً لها وبالنهاية فربما ننتقل إلى الإعجاب بها ، ونصور هيئتها في شكل شيء نبجلهُ . ربما كانت المخلوقات المصورة على شكل بابون في الصخور هي تقدير لعدو سابق .

كان هذا نوعاً من الحيوانات الخلابة التي تطوف بالنهر ، نوعاً من حيوانات الباون التي ذكرها (بروس ناتونس) في دراسته واصفاً لها بالقط الكبير (داينوفلس) الذي هدد الإنسان الأول بالإنقراض . ترتبط لوحات البابون مباشرة مع (ثوث) ، رغماً عن أي إرتباط لها مع النيل هو إرتباط غير مباشر . كان لقدماء المصريين آلة القيضان _ هابي) لكن النيل نفسه كان يعرف ببساطة بأسم (إنتريو) التي تعني النهر ، الإله المصري يربط عادة مع الحياة الآخرة (أوسبيرس ، والذي يصور بشكل مثير للإهتمام بصورة رجل أخضر ، وبالتالي يرتبط بأسطورة الرجل الأخضر في أوربا) هو إله يربط أحياناً بالنيل ، لكن السخاء الكبير لنهر النيل يبدو أنه تسبب في تجاوز قدماء المصريين له .

كل الكتب عبدت (ثوث) بما أنه قد أخترع الكتابة، لذا في كتاب يحتوي على قصص مكتوبة عن النيل يذكر (ثوث) على أنه هو الإله الذي أوجد الكتابة لنا ، تماماً كما فعل المصريون ، وأوجد التقاليد السحرية (هيرمز هو النسخة اليونانية من ثوث) المتعلقة بالمعرفة المخفية ، بالحكمة والغموض والكيمياء القديمة . كان (ثوث) هو من عمل على التأكيد من أن الخير والشر لن يحقق أحدهما نصراً حاسماً على الآخر .

هنالك قصة مصرية قديمة تشير إلى نص يعرف بكتاب (ثوث) . يحتوي هذا الكتاب على تعويذة تمكن المرء من فهم لغة الحيوانات . الكتاب كان مخبأً أصلاً في قاع النيل ، إذن تمضي القصة إلى القول أن أميراً مصرياً محروساً بسبعة من الخدم . قد حاول سرقة الصندوق الذي يحوي كتاب (ثوث) لكن عندما فعل ذلك فقد أنصبت الكوارث عليه وعلى أبناءه وأحفاده . كانت الرسالة بسيطة وهي أن المعرفة التي عند الآلهة لا يمكن الحصول عليها من غير حدوث تهلكة .

كانت حيوانات البابون تختبئ بينما عدنا في تلك الظهيرة . ليس هناك حاجة لتنقية هذه المياه . ذقت مذاقها النهري العذب عندما هدأ (هنري) من سرعة القارب بشكل مقصود عند موجة كبيرة ودودة من موجات منحدرات نهرية من الطراز الرابع ، لسان لامع أخطر من المياه القوية تنتهي بمزيج من الرغوة البيضاء مع أناس يضحكون مرتدين قبعات وسترات نجاة صفراء . قبل هذه الموجة من الإنتشاء كنا قد رأينا قطيعاً من حيوانات البابون ، ربما ثلاثين واحداً منها ، تقطع فروع الشجر على طول الضفاف مثل أشرار شبان في منطقة ريفية ، جدرانها منقوشه بالرسومات ، تبحث عن شيء لتقوم به ، وهي غير منزعجة وحجمها أكبر مما قد تظن .

٧. العرق الأحمر :-

(يخرج فرس النهر من البحيرة الكبيرة ليلعق الندى من على الحشائش) مثل أثيوبي .

قد يكون البابون هو أكثر حيوان يخشاه المرشدون النهريون ، لكن فرس النهر المتثاقل يعتقد أنه يقتل عدداً أكبر من الناس . مع هذا فعندما نبشت في الإحصائيات باحثاً فيها لأعرف ما هو أكثر حيوانات النيل تسبباً في الوفيات ، كانت التماسيح هي أيضاً في المراتب الأولى . حينها بدأت أفكر كيف جمعت هذه الإحصائيات بالضبط ؟ فبعض الأماكن مثل جنوب السودان لا يعرف عدد الناس الذين يسكنون هناك دعك من معرفة كم منهم ضربه فرس نهر أو قضمه تمساح ضخم . أترك الأرقام المريبة خلفك وأستمر في خوض الماء ، منتبهاً بالطبع لأفراس النهر والتماسيح .

بالرغم من وجود العديد من التماسيح النيلية على النيل حتى في مصر يجري إيقاف كثير منها ببحيرة ناصر فلا يوجد أي فرس نهر . كانت أفراس النهر ذات يوم منتشرة جداً لدرجة أنها كانت تعبد من قبل قدماء المصريين بجانب (ثوث) الذي كان رأسه رأس (بابون) قتل أحد أفراس النهر الملك (مينيس) المهاب الذي كان أول حاكم لمملكة (دينستي) وأول فرعون فعلي . إختفى أخر أفراس النهر في أدنى النيل في بداية القرن العشرين بعد بناء أول السدود التي صممتها بريطانيا والذي شيد في أسوان عام ١٩٠٠م . رأى (فلوبيرات) فرس النهر عندما سافر على النيل عام ١٨٤٩م ، رغماً عن أن أخر فرس نهر في القاهرة ربما قد مات في بداية القرن التاسع عشر .

لا يزال فرس النهر يعيش في الأقاليم العليا لنهري النيل الأزرق والنيل الأبيض قد لا تكون هذه الحيوانات مهددة بالإنقراض كما نظن . أشترى (بابلو أسكوبار) أمبراطور المخدرات أربعة من أفراس النهر النيلية في نيو أورلينز ووضعها في ضيعتهِ (هاسيندانا بوليس) التي تبعد حوالي ستين ميلاً من (ميدلن) في كولمبيا . عندما ألقي القبض عليهِ عام ١٩٨٧م فقد تركت أفراس النهر لتعيش طليقة في الضيعة . بحلول عام ٢٠٠٧م كان هنالك ستة عشر منها تعيش في نهر (ماقدالينا) وتسبب المتاعب للناس والماشية بمهاجمتها لهم وتسببها في جراح عميقة بأنيابها البالغ طولها قدمان . رغم أن أفراس النهر نباتية تأكل بشكل رئيسي الأعشاب على الضفاف ، فيمكن لها تحت الضغط أن تتحول إلى آكلة لحوم رغماً عن عدم مقدرتها على هضم اللحم جيداً .

بحلول عام ٢٠٠٩م كان رحلة صيد قد بدأت مستهدفة قائد هذه المجموعة من أفراس النهر وهو ذكر عدواني جداً سماهُ مسئولو إنفاذ القانون المحليين بإسم بيبي . كان الأمر وكأن حياة (إسكوبار) قد تضاعفت بحيواناته الضخمة . حوصر بيبي أخيراً وأطلقت عله النار قوة من الشرطة بموجب تصريح من الحكومة المحلية .

بمكن أن يخبرك كل المرشدين الذين تجدهم في الأنهار الأفريقية أن أفراس النهر خطره ، يظهر البحث في موقع يوتيوب فرس نهر وهو يتفوق على تمساح نيلي ضخم ويهزمه ،يمكن أن يحاول التمساح فقط أكل فرس نهر ميت ،. الحي منها خطر للغاية ، بشكل عام فإن الناس يخشون فرس النهر أكثر من التمساح بسبب عدوانيتها الشديدة الناتج عن حرصها المفرط على الاحتفاظ بمساحة خاصة بها، يلزم الذكر من فرس النهر مسافة ٢٥٠ ياردة من الضفة والتي يدافع عنها لآخر رمق.

لا تعتبر المساحات المسطحة الواسعة حديثة التكوين في حافة النهر مكاناً جيداً للاستماع برحلة فقد تصادف فرس نهر مسرعاً في اتجاهه نحو المياه التي يجب أن يحميها ، يمكن أن تكون الإناث عدوانية ولكن أقل من الذكور رغماً عن أنه من الصعب التفريق بين الجنسين لتشابهها في الحجم .

عندما يتحول لون فرس النهر إلى اللون الأحمر فيجب أن تأخذ حذرك.

بما أن قدماء المصريين قد صوروا اله العواصف واله الصحراء واله الفوضى في صورة فرس نهر أحمر فهذا يدل على معرفتهم بما يسمى (العرق الأحمر) لفرس النهر ، مثلها مثل البشر فأن أفراس النهر تتعرض أثناء حرارة النهار ولكن بخلاف الحال بالنسبة إلينا فهي تتعرض أيضاً عندما تكون في حالة غضب (يستوي في ذلك ذكرها وأنثاها) .

وبخلاف أي حيوان آخر تمت دراستهُ فإن فرس النهر يتعرق تحت الماء ، أثبتت الدراسات أن العرق الأحمر مضاد للميكروبات وفي ذات الوقت يحمى . مزيج من الواقي من أشعة الشمس والمطهرات وهو فعال . ليس لأفراس النهر معيار ساكني الماء (في واقع الأمر فإنها تشترك مع الحيتان وخنازير البحر في نفس الأسلاف) . تبدأ الجروح العديدة بشكل سريع على نحو مثير للإنتباه رغماً عن وجودها المستمر في الطين والماء . بحسب (كيميكو ماشيموتو) و (يوتو باكاوا) الذين كرسا سبع سنوات من عمرهما بشكل مثير للإعجاب لدراسة العرق الأحمر لفرس النهر . تمت تسمية العناصر الفعالة في العرق مكذيج من أحماض (هيبوموديوريك) و (نورهيبوموديوريك) . تخضب هذه الأحماض لإفراز الأحمر الذي يتحول لونهُ تدريجياً إلى البني بينما يجف .

الإله المصري القديم الأخر الذي صور على هيئة فرس نهر هو (تاويريت) الإلهة العظيمة والتي تظهر على شكل أنثى حامل غالباً مع تمساح على ظهرها .

من السهل أن تخلط بين قرن فرس النهر وبين شيء آخر رأيت ذات مرة شيئاً كنت متأكد أنهُ صخرة رمادية . كان ذلك في الواقع هو قرن فرس نهر في شكل دائرة مع وجود رأسه في داخل الإطار . حتى من بعد مائة يارده فإن الخط في ناحية ظهرها كان يبدو مثل حجر جيري صخري مدور في أعالي

النيل . إلى أن سمعت صوت إصطدام مجدافنا مع الماء وأتت سابحة لإستطلاع الأمر . تسبح أفراس النهر بسرعة ٥ أميال في الساعة ولذا فيمكن لمن يقود قاربا أن يسبقها ، لكن سيكون الأمر سباقاً متقارباً.

إذا كنت فوق قارب فإن أفضل شيء تقوم بهِ هو أن تبحر بالقرب من الضفة رغما عن أن ذلك قد يعتبر تعدياً على منطقة ذكر فرس النهر .السبب أنهُ حتى لو كان القارب مائلاً إلى جانب النهر فيمكن أن تقفز منهُ إلى اليابسة وتقوم بإنسحاب سريع بينما يلتهم فرس النهر قاربك المطاطي . لكن إذا كانت المركبة في منتصف المجرى فسيكون فرس النهر قادرا على قضم جزء كبير من جسدك الذي يتخبط في الماء .وخلافاً للتماسيح فإن أفراس النهر يمكنها أن تمضغ .

في حادثتين غريبتين فإن ملكة جمال جنوب أفريقيا السابقة (تايدن دايفس) هاجمها فرس نهر في مستنقعات (أوثوفانقو) عام ٢٠٠٧م بعد إسبوعين فقط من مقتل سيده كانت تقضي شهر العسل . نجت (تايدن دايفس) لكن ظلت تسير بعكازتين لعامين لاحقين . حدثت هاتان الحادثتان في نهاية فصل الصيف عندما يكون منسوب الماء منخفضاً والطعام قليل . ذلك هو الوقت الذي تكون فيه الذكور عادة عدوانية . إذا إلتزم المرء جانب المياه العميقة والظروف الرطبة فستكون فرصة حدوث الهجوم أقل إحتمالاً .

عادة ما تختبئ أفراس النهر في الأجمة أثناء النهار وتصبح عدوانية إذا ما فوجئت . لذا من الأفضل أن تتجنب مثل تلك الأماكن . لطائر (أوكبيكي) نداء تحذيري مميز –إذا سمعتهُ فربما يكون فرس نهر بالجوار .

إذا هاجم فرس النهر فإن إصدارك لصوت مزعج أو تصفيقك بيديك لا يجدي إطلاقاً . هذا مخلوق يمكنهُ كسر ظهر التمساح بقضمة واحده . لا تخشى هذه الحيوانات من شيء . أفضل شيء يمكنك عملهُ هو أن تتسلق شجرة أو تختبئ خلف تل نمل أبيض كبير .

٨. القاتل الأكبر :-

تعرف على مقاتلة النمر بمراقبتك للشخص الذي يتعامل معهُ بكثرة ؛ وهو راعي الغنم) مثل سوداني .

إذن فأنت تتجنب البابون وفرس النهر واللذان هما خطران جداً رغم ما يقولهُ الجميع عنهما ، لطالما أعتقدت أن ما يقال عنهما هو تضخيم مبالغ فيهِ لأمر لا يستحق . الآن أخيراً ، فأنت تواجه القاتل الحقيقي ، الحيوان الذي يسير على الأرض مكافئاً في قوتهِ للقرش الأبيض الضخم : التمساح النيلي . قد تكون الدلافين قاتلاً أكثر كفاءة من القرش (وبالتأكيد فإن أسماك القرش تخشى هجمات الدلافين) ، لكن هنالك شيء مميت وفطري متعلق بسمكة القرش يثير الذعر في نفس الإنسان بطريقة لا تتأتى للدولفين .إنهُ نفس الأمر بالنسبة للتماسيح .

ظننت أول تمساح رأيتهُ عصا . عصاً طولها ست بوصات مع كدمتين ، توجدان حسث تنبت العصا الأبعد منها . لم أكن أعلم فما كنت أحدق النظر ، لم أهتم كنت مفوناً بالإتساع المتلألئ للنهر حينما مررت برافد السوباط في السودان ، لكنني كنت أعلم جيداً أنهُ لا يجب أن أدخل أصابعي في الماء. جذبت العصا إنتباهي ، كانت تسير بإتجاه عكس الجريان ، ضد التيار ، رافعة أمامها موجات صغيرة . وتحتل حيزاً كبيراً على غير العادة ، ذلك أقل ما يوصف بهِ حجمها . بعدها ظهر الرأس (رأس التمساح) بس ببطء ولكن فجأة بطريقة غير متوقعة وكأنهُ شيء يولد في حينها أو كأنهُ ذكريات قديمة مطمورة في أقدم جزء من دماغ الإنسان . رأيت الكثير من التماسيح منذ ذلك الوقت وحتى أنني أكلت لحمها في أحد المطاعم (لحمهُ مثل طعم السمك) ، ولكنني مازلت ألتزم الحذر .أنهُ أمر يتعلق بعيونها.

قتل المستكشف (هنري كويتزي) من قبل تمساح وكان يبلغ من العمر حينها خمسة وثلاثون عاماً ، وكان قد أنجز مسبقاً مالم ينجزهُ أي مستكشف آخر وهو : عبور كامل للنيل من منبعهِ الأبعد وهو نهر كاجيرا إلى البحر الأبيض المتوسط . وكان قد عبر شلالات (مورشيسون) الشهيرة والتي يوجد في منطقتها أكبر عدد من التماسيح النيلية الضخمة أكثر من أي منطقة أخرى في العالم . وكان لديهِ عدد من سنوات الخبرة في التجديف على الأنهار الأفريقية .

سمعت بهِ أول مرة عندما كنت أقوم برحلة على نهر الزمبيزي لحساب مجلة رحلات . كان راكب الزورق الذي يقوم بتصوير الرحلة صديقاً لـ(هنري كويتزي)وحدثني عن كفاءتهُ ولطفهِ وهدوءه تحت الضغوط بطريقة مهيبة ، ، كان ذلك شيئاً طرق جرساً غريباً عبر العصور ، ذكرني ذلكبما يقولهُ الناس عن مستكشف آخر مات في ريعان شبابهِ وهو (جيتو واتكنر) من مستكشفي القطب المتجمد الشمالي ، والذي مات في زورق في الشمال المتجمد وليس في الأدغال الحارة في وسط أفريقيا .

قال (هنري كويتزي) : لو كنت أرغب في التزحلق على الماء فقط لما غادرت موطني ، المخاطرة من طبعي كوحش كاسر . كان ذلك الوحش يستكشف أنهاراً مجهولة في أعالي نهري النيل والكنغو عبر مراكب يونانية صغيرة ، زوارق يبلغ طولها ثمانية أقدام مع مساحة تزيد قليلاً عن مساحة زوارق التسلية مخصصة للمحرك ولوضع الطعام ، موازنة بين المخاطر المحتملة للوزن الزائد مع الحاجة للؤن في تلك المناطق البعيدة مثلهُ مثلواتكنر الذي مات في عمر السابعة والعشرين عندما أغرقت زورقهُ موجة من الجليد الطافي في (قرين لاند)فإن هنري أخذ على حين غرة عندما إلتقمهُ تمساح نيلي ضخم من خلفهِ في تلك المياه المجهولة لنهر (لوكوقا) الذي كان يعتبر في يوم من الأيام من منابع النيل (تصب تلك المياه في منبع من منابع نهر الكونغو في واقع الأمر) .

كنتُ أرغب في مقابلة (كوتزي)لأنهُ يملك معرفة بالأوضاع الحقيقية في النيل الأبيض أكثر من جميع المعاصرين . ومع هذا فيبدو لي بطريقة عجيبه أن تحديه للنهر وسيطرتهِ عليه بقيامه بأول رحلة كاملة على النهر (نستثني من ذلك من قام بمحاولة عبوره على فترتين لأن ذلك غير محتسب) يبدو لي

أن ذلك الإنجاز يمكن أن ينظر إليهِ بإعتباره نوعاً من التعالي من قبل الإنسان على العالم الطبيعي ، أغضب آلهة النهر بطريقة ما . ولطالما كان التمساح هو أعظم آلهة النيل .

لا يمكنني أن أتفادى الشعور المستبد بأن (جينو واتكنز) كذلك قد راود موته بطريقة ما . كان واتكنز هو الرجل الذي جلب كشف ووصف الإسكيمو إلى العالم المتقدم . قبل إقامته في قرين لاند التي إمتدت لسنه فقد كان بعتبر من المستحيل على الرجل الأبيض أن يقوم بتلك المناورة البهلوانية بمركبه مصنوعة فقط من الجلد والعظم . لكن واتكنز أصبح ماهراً في دحرجة قاربه – وهو أمر أساسي في البحار القطبية المتجمدة لدرجة أنك يمكن أن تظنهُ واحداً من الصيادين المحليين وهو قيامهُ بالصيد وحدهُ ، وعندما قذفت بهِ موجة من الجليد الغاطس من على مركبتهِ الضعيفة المغطاة بجلد الفقمة والمصنوعة من العصي والعظام ، لم يكن معهُ أحد ليساد في إنقاذه من المياه المتجمدة .

ذكرت واتكنز لأن ذلك الأسلوب الذي أظهرهُ يمكن تطويره ليصبح مكتمل الأركان (أنا نفسي إستفدت من تعلمي قبل سنوات لكيفية التدحرج بإستخدام مركب تجديف صغير في حوض سباحه في أكسفورد) ، كان ذلك الأسلوب هو مامكن (هنري كويتزي) من القيام برحلتهِ التي لا تصدق بذلك المركب الصغير .

كان كويتزي يعلم بالمخاطر ويعرف التماسيح ، رغماً عن أنهُ من الممكن أن يكون قد صدق الإسطورة التي تحكي عن غباءه وأنها لا تستحق ذلك الوصف لدى التمساح النيلي دماغ معقد أكثر من كل الزواحف في الكرة الأرضية ، ولكنهُ لم يتطور خلال الماضي القريب ، فقط ظل التمساح دوون تغيير للستين مليون عام ، وكانت توجد أنواع قريبه من نوع التمساح الحالي منذ ذلك الزمن الذي وجدت فيه الديناصورات منذ مائتي مليون سنه أو أكثر .

عندما كنت سائراً على بعد ثلاثين ميلاً من المجرى الحالي لنهر النيل وجدتُ سناً لامعه من أسنان أحد أسلافالتماسيح من فترة ماقبل التاريخ وأسمهُ (لاقانوموشس)قد تظنهُ في بادئ الأمر أحد المتحجرات ، حجمهُ حوالي بوصه أو بوصه ونصف ، لكن بعدها يمكن أن تميز بوضوح ذلك الغشاء الأكسيدي للحيوانات الاحفوريه وكذلك الحافة الحادة التي تشبه أزميلاً معقوقاً للأسنان المدببة وتدرك أن ذلك المخلوق الطويل الميت خلق على هيئة هراوة معاصرة أو عصا ذات مسمار وتعلم أن ضربة واحدة من هذه الأسنان الكثيرة التي تشبه المسامير ستؤدي بحياتك من غير رحمة . وللتمساح النيلي ستة وستون سناً ومن الغريب أن في أعالي النيل الأبيض وعندما يكون منسوب النهر منخفضاً ، فإن تماسيح هائلة الحجم ستختبئ في تجاويف صغيرة نسبياً وفي داخل برك في قاع النهر، الحبس الذاتي هذا أو الذي تبقى فيه التماسيح من غير حراك تجعل أصغر أقفاص حديقة الحيوان لدينا تبدو واسعة .

حذر (هنري كويتزي) أعضاء فريقه بضرورة أن يبقوا متلاصقين كما عبر عن ذلك أحد أعضاء الفريق : (سوف تبدون ليس كزورق طوله ثمانية أقدام ، بل كمجموعة أضخم تبدو مثل كائن أكبر)يبدو أن التماسيح لا تفكر بهذه الطريقة . رغماً عن أن هذا التكتيك كان قد خدم كويتزي بشكل جيد خلال تلك

المناطق المأهولة بالتماسيح مثل شلالات (مورشيسون) كانت تلك مناطق الناس والمركبات فيها ليسو غير معروفين . من المحتمل أن إستراتيجية التماسيح (الالتقاط) ثم إضعافها عن طريق الخبرة بأن مجموعة من الناس قد تتعامل بصورة مختلفة مع مجموعة من الظباء أو الخنازير أو أسماك البيرنس النيلية .

أنها واحدة من آليات البقاء الأخرى للتماسيح النيلية وهي أنهُ يمكنها أن تعيش على ضفدعة أو تلتهم حمار وحش . بإستلقائها على أشعة الشمس وفوق صخور الشاطئ الدافئة فإن التمساح يحتفظ بالطاقة ويمكنهُ أن يبقى فترات طويلة من غير طعام .

تنجح إستراتيجية الإلتقاط للتمساح بإرتباطها بعنصري الضجيج والإرتطام بالماء . الضجيج لا يخيف التماسيح بل يجذبها ، وهنا فإن كويتزي كان محقاً دون شك في أوامره المستديمة ألا يجزع المرء عندما يواجه مثل هذا النوع من الخطر . وذلك أن الضجيج يجعل التمساح يظن أن هنالك قطيعاً من الظباء أو فصلاً من أطفال المدارس يعبرون النهر . ذاك الواحد البطيء المتثاقل الخطى في المؤخرة ذاك هو من يستهدفه التمساح النيلي . كان كويتزي ورفيقيهِ الآخرين الذين كانا يتوليان التجديف قريبين من بعضهم البعض لدرجة أنهما كانا يلزمهما أن توخي الحذر حتى لا تصطدم صفائح مجاديفهما مع بعضها . كانوا يقومون بكل شيء على الوجه الصحيح لو أن نظرية (الظهور بمظهر الكائن الكبير) كانت صحيحة . لكن كان كويتزي مائلاً قليلا نحو مؤخرة القارب وكان ذلك هو الإتجاه الذي أتى منهُ الهجوم ، إلتقطهُ تمساح كان يفهم أن هذه مجموعة من الضحايا المحتملين ممن يرشون أجسادهم بالماء.

يسيء الناس عادة تقدير ذكاء الحيوانات المتوحشة وعادة فإن الصياد (وعالم الأحياء الذي يصيد ببندقية السهام)هو وحدهُ من يدرك مدى دهاء ذلك المخلوق الذي عاش لمدة ستين مليون عام . وليس أن الهجوم على كويتزي يعني أن راكبي القوارب يجب أن يثبتوا إستراتيجية مختلفة . التماسيح النيلية هي أكبر الحيوانات القاتلة في أفريقيا والتي تؤدي بحياة أكثر من ألف شخص سنوياً ، لا أحد يعلم على وجه التأكيد لكن ، هذه هي الأرقام التقديرية . يبدو أن التماسيح تعيش بسعادة فقط مع الناس الذين يعبدونها . قدماء المصريون والغانيين الذين يسكنون في مدينة (باقا) القديمة الذين يطعمونها أسماك القطة ويأخذون راحتهم مع تماسيحهم لدرجة أنهم يقومون بتجفيف ملابسهم على ظهورها بينما تتشمس التماسيح على الشاطئ . هل من الممكن أن تكون عبادة حيوان قاتل والتي تبدو غبية هي في الواقع إستراتيجية ذكية للتعايش مع شيء لا يمكننا أن نسبقهُ أو نفوقهُ في التفكير أثناء لعبة البقاء ؟

يجب ألا ننسى أن لعضة التمساح النيلي قوة ضغط مسجلة أكبر من أي حيوان آخر ، تبلغ تلك القوة أكثر من ٦٠٠٠ طل على البوصة المربعة ، يمكن مقارنة ذلك بما لدى كلب شيبارد الألماني ٣٠٠ و ٦٠٠ للأسد و١٨٢٠ لفرس النهر ، وقيمة تبدو ضئيلة بالنسبة للقرش الأبيض الفتاك وهي ٦٠٠ ، ١٠٠٠ للسلحفاة . تبلغ قوة ضغط عضة الإنسان حوالي ١٠٠ رطل على البوصة المربعة .

من المثير أن نكتشف أن طائفة التمساح السوبك الدينية المصرية القديمة قامت ببناء معابد ومحميات في مناطق المنحدرات والمنعطفات الواسعة وهي المناطق التي تزداد فيها شراسة التماسيح وتكثر أعدادها . في الوقع فإن هذا هو الإله المصري الوحيد الذي كون لموقع المعبد المخصص لهُ سبب ملحوظ وعملي . بالنسبة للآلة المصرية الأخرى فنحن لا نزال بشكل أو بآخر نجهل سبب إختيار موقع لمعابدها دون الأخر وأن عبادة التماسيح كانت عبادة صادقة ومكتملة ، ويشهد على ذلك مقابر التمساح الضخمة التي وجدت في (تبتنس) في واحة الفيوم . كان أكبر تطور لعبادة التمساح في الفيوم . بإعتبار أن تلك كانت هي أكبر بحيرة في مصر (إلى حين إنشاء بحيرة ناصر مع سد أسوان العالي) ، فيمكن للمرء أن يعتقد أن ذلك ربما كان إستجابة عملية للعدد الكبير من التماسيح في بحيرة قارون .

إن التمساح النيلي هو حيوان النيل بإمتياز بإعتباره نهراً دامياً ، مع هذا فالتمساح لا يعمد إلى عض الشرايين والأوردة ، وغماً عن أن أحدها ربما يحاول أن يضربك بذيلهِ . في الواقع فإن أسلوب القتل المحبب لدى التمساح هو أن يقبض على الضحية بهدوء ومن غير ضجة ويغرقها ، وعادة ماتكون الضحية ذكراً وليس أنثى . عدد وفيات الذكور نتيجة هجمات التماسيح تفوق وفيات الإناث بنسبة ٤ إلى ١رغماً أنهُ من المتبادر إلى الذهن إتخاذ هذا الأمر نحو كدليل رئيسي على غباء الذكور فإن السبب الأكثر ترجيحاً هو أن النساء رغماً عن أنهن ربما يقمن بزيارة ضفاف النهر فهن في المجتمعات التقليدية لا يعمدن إلى السباحة والإصطياد في مناطق بعيدة عن مناطق سكن الناس . تسبب تماسيح المياه المالحة والتماسيح النيلية أكبر عدد من وفيات البشر بين كل المخلوقات التي تسبح أو تزحف أو تعدو في كل الكرة الأرضية ولطالما كان الأمر كذلك . الرحالة (جون ماك قريقو) من القرن التاسع عشر والذي كان من الشجاعة بحيث أنهُ إستطاع أن يجدف في النيل عام ١٨٤٩م نقل إلينا أنهُ رأى رجلين قتلهما تمساح طوله ٢٦قدماً كان يحرك ذيلهُ مثل هراوة ضخمة . وقبل عشر سنوات من ذلك كتب الرحالة الإيرلندي (إليوت وابرتون)أنهُ وجد صبياً يبكي بقرب تمساح حيث كان قد إلتهم جدته ، باع الصبي التمساح بمبلغ ٧ جنيهات مع وجود السيدة العجوز بداخلهِ .

ليس من المستغرب أن عبد الناس التمساح ولا يزالون يعبدونهُ . سوبك هو أقدم تمساح إله حقق شعبيتهِ خلال حقبة (البتولوميه) خلال القرن الثالث قبل الميلاد . واحة الفيوم واتي يغذيها النيل كانت تسمى (كرووركد أيلوبوس) تلك الكلمة اليونانية التي أشتق منها الإسم المعاصر للتمساح . ومن الغريب أن أحفوريات لتماسيح عملاق وجدت أيضاً في نفس الواحة وهي بقايا منقرضة لحيوانات نيلية . يمكنك أن ترى متاجر العطارة في سوق التوابل في القاهرة تمساحاً محشواً متدلياً من عارضة السقف . لأجل الحفظ والحماية . يمكنك بالفعل أن تشتري واحداً منها لجلب الحظ من سوق خان الخليلي . تأتي غالباً من بحيرة ناصر . النيل الذي أنشأت عليهِ السدود هو النيل الذي حلت عليهِ اللعنات من جانب أخر . مع وجود وفرة من التماسيح يفوق عددها ٧٠٠٠٠فهو ليس مكاناً تريد إستكشافهُ في الظلام .

ومع ذلك فإن السد يحجزها عن الوصول إلى القاهرة .وفي الواقع فإنهُ عندما يحدث أن يجزع الناس بسبب تمساح في القاهرة فعادة مايكون ذلك ناتجاً عن تمساح مستأنس لم يعد مالكهُ يرغب في إحتجازه فأرسلهُ طليقاً ليعود إلى بيئتهِ الطبيعية .

إن منظر التمساح المحشو وهو يزين عرين الساحر هو منظر مألوف في عدد من الأفلام الخارقة أو برامج التلفيزيون . هذا الأمر مأخوذ عن التقاليد السحرية والكيميائية المصرية التي هي أصلاً موروثة عن طائفة السوبك . أغلب الممارسات السحرية هي أشكال محرفة من محاولات عملية . هنالك دلائل مقنعة أن أشكال الصلوات هي في الأصل حركات بدنية راقية صممت لتحقيق أقصى درجات الصحة العقلية والجسدية ، كما هر الحال في شكل (تاي شبه) طائفة السوبك كما رأينا هي تتبع من رغبة في إسترضاء أكبر الوحوش في المنطقة ومن إستراتيجية معقولة من المتابعة والمهادنة عن طريق رفع وضع التمساح إلى مرتبة الحيوان الخارق والشعائري .

يمكن الإستدلال على الأهمية البالغة لنهر النيل بأنهُ في الواقع لم يكن لهُ إله . خانوم هو الإله المحلي للنيل في الشلال الأول ، قرب أسوان في مصر الحديثة وهو المكان المفضل لـ(فرانسيس ميتراند) و (أقاخان) وكذلك (أجانا كريتسي) و (ونستون تشرشل) بإعتباره المكان ذو المناخ الأفضل في الشتاء كان ذلك المكان هو المصر التقليدي للعلاج وبالتالي جزيرة الفيل التي كانت تخزن منها كميات كبيرة من الأنياب الأتية من أفريقيا قبل أن توزع على البوارج النيلية . من ناحية فإن الشلال الأول هو بوابة مصدر وهو أول مكان يمكن فيهِ ملاحظة الفيضان ، وتعتمد الرفاهية وقوام الأمة على ذلك الفيضان .

كان ينظر إله سوبك في بعض من الأوقات على أنهُ الإله الأول الخالق ، الإله الذي يمسك بالأمور ، وهذا بالتأكيد يسبق طائفة (را) وآلهة الشمس وربط الضوء بالتوحيد ، لأن الأديان الأرضية تكاد دوماً يحل محلها أديان التوحيد كلما تقدمت الحضارة . رأيت مثالاً واضحاً على ذلك في شمال (بورتو) عندما أراني أحد قادة القبائل (الذي إعتنق الآن المسيحية) ، أراني جبلاً على هئية تمساح من حيث إعتادوا أن يمارسوا عبادتهم (ويعلقوا رؤوس أعدائهم) . لم تتبق تماسيح في تلك المنطقة ، إن كان هنالك بعض منها مع ذلك فإن الممثل الرئيسي للديانات الأرضية ظل ثابتاً إلى أن حل محلهُ الدين المسيحي .

يمكن أن يزن النيل ما يقرن من الطن ، ووزن سيارة صغيرة مثل (هوندا سيفيك) أو (فورد فيستا) لكن (فورد فيستا) لا يمكنها أن ترتفع في الهواء لمسافة تسعة أقدام مرتكزة على أرجلها الخلفية وذيلها . مستخدماً الذيل المتأرجح ليبقى طافياً بينما يقفز إلى الأمام من الماء ، وفكيه يقضمان ، الفكين الذين لهما قوة طحن تماثل ماكينة ضغط . الناس الذين قفزوا من المراكب إلى الأفرع المنخفضة من الأشجار جذبتهم التماسيح من هناك رغم أن الإرتفاع الذي وصلوا إليهِ كان يبلغ إلى أعلى من قامتهم ، على اليابسة إذا كان الشخص مثلاً يتجول على شاطئ النهر فعليهِ أن يحتفظ بمسافة معقولة من المياه الضحلة . عصاة ذات عينين يمكن أن تقفز إلى إرتفاع ثلاثين قدماً إلى الشاطئ من موقعها المغمور بالماء .

كانت التماسيح تقوم بذلك على الدوام . وجدت بقايا من الإنسان الأول (هومو هابيليس) في وادي الأخدود العظيم في (اولدافى جورج) مع وجود ثقوب في أجسادهم نتجت عن أسنان التمساح ، جماجم عمرها مليون عام .

تحرس التماسيح – الأم والأب –عشها إلى حين أن تنذرها صغارها بوجوب كسر البيض ليفقس . تغرف الأم صغارها التي تتلوى وتحملها في تجويف أسفل فمها الضخم . تطلق الصغار في مياه آمنه وتحرس لمدة ستة إلى ثمانية أسابيع – ليست هذه الإستراتيجية المعتادة للزواحف . حينما يكون الأمر متعلقاً بالكم أكثر من الكيف . إذا كانت التماسيح تعتني بصغارها واستطاعت أن تبقى أكثر من تلك الزواحف التي أنتجت الكثير من البيض فيجب أن نفترض أن التماسيح جيده في تلك الناحية .

للتماسيح فم ضخم لهُ قوة طحن تفوق الطن . على أية حال فإن عضلات فتح الفك ضعيفة نسبياً . ما يتيح للصيادين (الذين يقتفون آثار طرازان) الفرصة ليبقوا على الفم مغلقاً إلى حين أن يربط بالحبل . التماسيح لا يمكنها المضغ . تعني الحركة الضرورية من جانب إلى آخر أن قوة الطحن المباشرة ستضعف . بدلاً عن ذلك تلجأ التماسيح إلى قضم قطع عن طريق هز الضحية بعنف لتفصل قطعة ، وفي حالة الحيوانات الكبيرة تدور حولها وتدور لتمزق لقمة . هناك حالات لأناس إختطفتهم تماسيح ودارت بهم وتخلصت منهم بطريقة مزرية وتركتهم أحياء لكنهم لا يقوون على تحريك الطعام إلى فمهم .

بمجرد أن تقطع قطعة فإن التماسيح تأخذ الوضع المميز بإرجاعها العنق إلى الخلف ورميها للقطعة إلى أعلى ثم يزدردها .

تظهر طريقة إصطياد التماسيح أهمية النظر بالنسبة إليها . كتب (هيرودوتس) قائلاً أن الطين على أعين التمساح النيلي يمكن أن يجعلها غير فاعلة . يتوافق ذلك مع أساليب الصيد المعاصرة حيث يقذف جوال في الليل على عيون التمساح . هذا هو مقتل التمساح إن صح التعبير ، أو يبدو كذلك . يبقى التمساح ساكناً إلى أن يقيد ويلقى القبض عليهِ . لماذا لا يحاول التمساح ببساطة أن يزيل الحاجز من فوق عينيهِ ؟ تماماً مثل ذلك الصياد الطبيعي (الصقر)الذي يبدو أنهُ يتوقف عن العمل في الظلام لأنهُ يتقبل الظلام كإشارة إلى الراحة . للتماسيح جفن ثالث شفاف ، ذلك الغشاء الذي يسمح لها بالرؤية بوضوح تحت الماء .يمكن أن يكون وجود هذا الجفن الثالث والذي لهُ علاقة ببقائها ساكنة عندما يمنع عنها الضوء . في الواقع فإن هذه المقدرة على الإبصار تحت الماء تسمح للتمساح بإغراق ضحيتهِ وتركها تحت صخرة مناسبة ثم يعود إليها ليأكل منها بعد أن يكون اللحم قد تعفن وأصبح أكثر مرونة . يمكن للتمساح أن يبقى تحت الماء لمدة خمسة عشر دقيقة أثناء العراك مع الضحية . وإذا لم يكن تحت ضغط ما فإنهُ يمكن أن يبقى أكثر من ذلك ، في الواقع لمدة ساعات . هناك حالة يبقى فيها التمساح لمدة ثمانية ساعات في مياه باردة جداً . الأمر الذي أدى إلى إبطاء تمثيلهِ الغذائي ، سامحاً لهُ بالمحافظة على الأوكسجين .

تحب التماسيح المياه العميقة لأن الإغراق هو أسلوبها المفضل لتقطيع الضحية . كون أن هنري (هندري كويتزي) غرق فهذا أمر لا شك فيهِ . للأسف فإن جثته لم يتم العثور عليها أبداً .

٩. التمساح يحكي الحكاية :-

(بمرور الوقت فإن المياه الجارية يمكنها أن تجعل حتى الحجر ينطق) مثل أثيوبي .

ذكر (هيرودوتس) طائراً هو طائر (تروشيلس)وأنهُ الطائر الوحيد الذي يسمح لهُ التمساح بالتواجد قربه أثناء فترة تعرض التمساح لأشعة الشمس . يدخل الطائر إلى فم التمساح الضخم ويأكل ما يعلق بهِ . تم التعرف على الطائر مع الزقزاق ، العضو المصري الوحيد في ذلك النوع من الطيور . من الغرائب أن هذا الزقزاق لهُ مهماز أو شوكة في كلا الكتفين ، شيئاً مثل مخلب أثري يذكرنا بالزواحف المجنحة ، وعلى حسب الأسطورة فإن هذه الشوكات يستخدمها الطائر لخدش الجانب الداخلي من فم التمساح في حالة أن قام التمساح ناسياً بإغلاق فمهِ على صديقه الطائر المساعد لهُ . يزدرى علماء الطيور المعاصرون طائر التمساح أو طائر (سكساك) كما يعرف على طول النيل ، رغماً عن أن المؤرخ الموثوق (جيمس أوغت جون) كان قد كتب في عام ١٨٤٠م قائلاً : (من الأكيد جداً أنهُ من النادر رؤية التمساح دون أن يكون طائر أو أكثر منها إلى جانبهِ) . يقول الدكتور (ليفنق ستون) من الجنوب يقول أن أسمها جنوب الصحراء هو (الحديد الذي يطرق) بسبب صوتها الرنان . ذكر صلتها بالتمساح ولكنهُ لم يراها تدخل إلى فمه . تذكر بعض الروايات أنها تعيش على الطفيليات الموجودة على ظهر التمساح بدلاً عن فمه وأن ما ينفع التمساح هو ذلك الصوت الرنان . يقول (هيرودوتس) أن سكان النيل في أسوان بعيدين عن عبادة التمساح كما يفعل غيرهم في أدنى النهر، هم في الواقع يأكلون التمساح . تثبت قطعة من لحم الخنزير إلى خطاف وتقذف إلى وسط النهر في أثناء ذلك وفي الضفاف يضرب خنزير مربوط بقضبان الخيزران إلى أن يصيح ويعوي ، التمساح يخلط مابين الحدثين ، ويبتلع الخطاف الذي فيهِ الطعم ، ويسحب بعدها بسهولة إلى الخنزير الذي يعوي . وعندما يقترب من الضفة يوضع طين رطب على عينيه مما يجعلهُ سهل الإنقياد وساكناً إلى أن يقتل دون مقاومة . صياد التماسيح الأسترالي الشهير (إستيف أروند) كان مغرماً بإظهار سهولة صيد التمساح بإلقاء جاكت أو قطعة قماش على عيون التمساح قبل ربطه بالحبل . من دون هذه الإحتياطات فإن التمساح يقاتل دفاعاً عن حياتهِ .